



مدار القلب

محمد جبريل

مدار القلب

تأليف
محمد جبريل



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٥٢٧٣ ٣٣٧٨ ٩٧٨ ١

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٩.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

٩	روائح القرب
١٧	غوامض يصعب فهمها
٢٣	ملاسة الضفاف
٢٩	شمس الليل تؤذن بالمغيب
٣٥	إيقاعات
٤١	في انتظار ما لا يأتي
٤٩	ارتحال السكون
٥٥	اغتيال
٦١	نافذة على ميدان
٦٧	مدار القلب
٧٣	مقام الصحو
٨١	رقة ابتسامة
٨٣	غواية
٨٥	الجسر
٩١	الحقيقة تحتل الكذب
٩٧	تعدد الوسائل إلى المبتغى

ربما أأمد عرياناً ورائع
يا عدو الشمس ... لكن لن أساوم
وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم
ربما تطعم لحمي للكلاب
ربما تلقى على قرينتنا كابوس رعب
يا عدو الشمس ... لكن لن أساوم
وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم
ربما تصلب أيامي على رؤيا مذلة
يا عدو الشمس ... لكن لن أساوم
وإلى آخر نبض في عروقي ... سأقاوم

سميح القاسم

روائح القرب

ربما تختلط المرئيات، تتشابك في المخيلة، دوائر ومثلثات ومربعات ومستطيلات، خيوطٌ تتداخل، تُحيل ما يبدو من المخيلة جزئياتٍ مبعثرة تصعب مشاهدتها، يختلط ما أراه وما أتخيله، تتحوّل المرئيات إلى أشباحٍ متحركة وثابتة، ثمة ملامح تظلّ ماثلة في الذاكرة يصعب نسيانها، أقيم علاقاتٍ بين من أعرفهم ومن يخلقه الخيال، أعرف أن ما يجري في الواقع لا يتطابق مع صور المخيلة.

وأنا صغيرٌ، أقمّتُ علاقةً في الخيال، بيني وبين المدرّسة، تأملتُ يدها، تضعها فوق الدرج، أصابعها الطويلة، وأظافرها المطلية بالمانيكير الأحمر، ظلّت الصورة في بالي، خلوتُ إليها، جعلتُ من البلي جنودًا يتقاتلون، يتطاير الدم من أجسادهم. أذكر تحديقي في القمر من نافذة القطار، أصبح في السائق الذي لا أراه في القاطرة الأمامية، كي لا يجعل القمر يسبقه.

اختلطت وقائع طفولتي بالتخيّل الذي فرضه انقضاء السنين، اختلط ما حدث، وما اخترعه الذهن، ما تخيلته، ربما تغلّب المتخيّل على الذاكرة الحقيقية.

مارستُ التخيل كثيرًا في طفولتي؛ تمدّدت تحت السرير النحاسي الكبير في غرفة نوم أبي، وضعتُ صندوقًا فارغًا مقلوبًا عليه حلوى اشتريتها من مصروفي، أبيعها — بالأجل — لإخوتي وأقاربنا. قرأتُ على فاترينة عم طلعت البقال لافتةً صغيرة، تقول: «إن نطق الديك، شكك أديك» ... أنمعت أن أفعل الفعل نفسه؛ أدليتُ — من طرف السرير — ورقة كتبتُ عليها كلمات تشترط الدفع الفوري.

يأخذني الفصل، أجده مشابهاً لما أراه في دكاكين شارع الميدان، اخترعتُ ألعاباً بأدوات البيت؛ الملاعق والشوك والأوعية والأكواب.

أسلم نفسي للنوم على حوادث أُمي: «يا ست يا ستنا، يا اللي قصرك أعلى من قصرنا، ما تدينش عنقود عنب، للمريض اللي عندنا؟ إيه اللي غير شكلك يا جدتي؟ يا بير يا بير، أديها صراصير كتير!» أجدني روبنسون كروزو، يُخضع حيوانات الجزيرة وطيورها، تضيف إلى الحكايات حواشي وهوامش وزيادات، بما يجذب انتباهي، أحثها على الزيادة.

ظلت حياتي مقتصرة على القراءة، لا أنزل إلى اللعب في شارع التمرزية، ولا أذهب إلى الشاطئ، لا أقود دراجة، أقرأ قصة أو رواية، ما أتخيله ينتقل من صفحات الكتب والمجلات إلى رأسي، شخصيات عرفت في تشابك القراءات، أحوالها مشابهة لما أعيشه، أو أتمنى العيش فيها، تتشكل — في توالي الأيام — ملامح وقسمات ومواقف، أنسج من الحكايات حكايات أخرى، أتصور نفسي فيها، أختار الشخصية التي تثيرني، قد تكون فلاناً بقدرته على نسج المكائد، وليس فلاناً الذي يتلقى الضربات في صمت، وبلا مبالاة.

تخيّلت شهرزاد تلجأ إلى ذكاء تودد، ولؤم شواهي ذات الدواهي، وألعيب علي الزبيق، ومؤامرات علي الكلباني، وميل السندباد لتحدي الخطر. تلجأ شهرزاد إلى كل هؤلاء في مواجهة أفعال شهريار؛ إعداماته المتوالية لبنات في مثل سنّها، ما قضى به جرائم؛ لا بد من محاسبته عليها، يغيثونها؛ فيعاقبونه على ما فعل، لا تحني الرأس بالتذلل، وتطلب الإشفاق.

لم تترك شخصيات الجريمة والعقاب بالي بعد أن قرأتها: رسكولينكوف والمرابية العجوز ومفتش الشرطة، أستعيدها في جلستي على القهوة، وأنا أرنو إلى أفق البحر، تخيّل نفسي رسكولينكوف، أقتل المرامية العجوز، لكنني لا أخلف أثراً، ولا أعود — كما فعل الشاب المسكين — إلى موضع جريمته، أحقق الجريمة الكاملة.

أنظر إلى السيدة البدينة ذات الوجه المستدير، والشعر المجعد، والأصباغ الفاقعة، هي عنايات، في رواية نجيب محفوظ «السراب»، أتوق إلى علاقة معها، العلاقة نفسها التي وجد فيها كامل رؤية لآظ حللاً لأزمته الجنسية، الجنس في بالي يرتبط بالقسوة والعنف، تقتحمني الغابة بتعدّد وحوشها.

أنفض توعّد محبوب عبد الدايم في «القاهرة الجديدة» أن يدمر المدينة الهائلة، هو ما توعّد به الشاب راستينيال باريس في رواية بلزك «الأب جوريو».

التقيت دون كيخوته في بحري، يخوض معاركه ضد العساكر عند تصدّيهم للمتظاهرين في أثناء قدومهم من رأس التين، سرت في طريق غسان كنفاني إلى حيفا، توزّعت الطرق، لم أعرف أيها يمضي إلى أين!

أحببتُ البنت في البيت المقابل، تخيّلتُ أنها تحبُّني، الأيام القليلة التي مضت على سكناهم، لم تتح لي معرفة اسمها، ولا الصلة بينها وبين الرجل الأربعيني الذي يقاسمها الحياة في الشقة، «هل هي ابنته، أو زوجته، أو قريبة تؤنس أيامه؟»

اخترت لها اسم مريم، جارة أسرة أحمد عبد الجواد، رسمتُ في بالي عشة طيور تعلو السطح، أصدع إلى مريم، وهي تُطعمها الحبوب، أ همس لها بكلمات الغزل، تمامًا كما كان فهمي يفعل في وقفته خلف الجدار الفاصل.

لم أعد أستطيع تخيّل الدنيا من دون أسرة «بين القصرين»؛ أحمد عبد الجواد وأمينة وياسين وخديجة وفهمي وعائشة وكمال وأم حنفي، نظرات السطح الممتدة إلى مآذن القاهرة وقبابها، ثقبو المشربية المطلة على ما بين القصرين والنحاسين، وخروج الزوج والأبناء إلى أعمالهم، خيمة عساكر الإنجليز في الساحة الصغيرة، تناهي رفع الأذان — عبر خصائص المشربية — من الحسين أو الأزهر، نداء الجرسون في القهوة القريبة، قعقة عربات الكارو على مستطيلات البازلت. أطلُّ من سطح قصر بشتاك، الموضع الذي اختاره نجيب محفوظ لأسرة أحمد عبد الجواد، أشرد في المآذن والقباب، تتخلّل البيوت إلى نهايات الأفق، يتقمّصني كمال، فأطيل التوقّف أمام قبو قرمز، تختفي سحن المارة وتكويناتهم الجسدية، يتقافز في مساحة الظلمة — وسط القبو — عفاريت وجان ومخلوقات شائهة، أتلفت مرتبكا وخائفا، حتى أجد يدًا تعينني على السير إلى الناحية الأخرى، أجدني ياسين في جلسته على القهوة، أرفع نظراتي الملهوفة إلى نافذة زنوبة، أرقب إيماء الموافقة، أتلفت في جوانب المكان، أجدس أين تمضي خطواتنا، تشحب ملامح فتاة النافذة المقابلة، تغيب تمامًا، تحلُّ مريم واضحة الملامح، أذكر حبَّ فهمي لها، وغضبة أمينة من طلب ياسين أن يتزوجها، أكتم مشاعري نحوها، أطردها الهواجس اللعينة، فلا أسئ إلى ذكرى فهمي الذي استشهد في الثورة. تمضي خطواتي في طريق ضابط قسم الجمالية، أفعل ما لم يكن يقوى على فعله، أرقب استجابة عائشة، أذندن بما تغنيه خديجة: «يابو الشريط الاحمر، ياللي أسرنتني، ارحم ذلي!»

هللت — بتخيّل حب بنت الجيران — لوقفته أمام الباب، بدا جسدها أقرب إلى الامتلاء مما أراه من داخل النافذة، والعينان الساجيتان تنطقان بمعانٍ يصعب تفسيرها. حين أغلقتُ البنت نافذة البيت، بدت لي مفتوحة بدلًا من النافذة المغلقة، رأيتهما تطالعني في إطارها، ناوشتني أمنية، كأنها حلم: أن أراها عارية، أستأذن في دخول الحمام، أفرغ ما أخترته من انفعالات التصور والبنت تتحرك، وتتكلم، وتعبر بعينيها ويديها، أشرد في آفاق

لا تنتهي، فسَّرتُ حرصها على إبقاء النور مضاءً، بأنني أجد في الرؤية ما يثيرني ويرضيّني، نزعت قميص النوم الأسود، وألقته بعيداً، ظللت صامتاً، وإن اتجهت عيناى إلى البنت، التي أحْتُضنها في الخيال.

ألتقط من الشارع، أو الجريدة، أو شاشة التليفزيون، وجهاً يثير في داخلي ما يدفعني إلى استعادته، ربما في حجرة النوم، أو داخل الحمام، أو حتى وأنا أشرد في الفراغ أمام النافذة، يغيب تمام الاستعادة ما لم أكن بمفردي. للتخيُّل صلته بالنساء، أتخيل — من وراء الفستان — تكوينات جسد الفتاة الواقفة في زنقة الستات؛ الاستدارات والتكويرات والانبعاجات، التفصيلات الغائبة.

أخلو إلى نفسي، وإلى من احتضنتها النظرات، أستعيد ما استقرَّ عليه تصوُّري، لا ألتفت إلى ما ترتديه، أو أعريها، أغمس وجهي في شعرها، أحاورها بصوت هامسٍ، ملتدٍ، يتصاعد بتصاعد النشوة، تأتي الرجفة، فتشحب الصورة، وتبهت المرئيات، يتبدّل الحال بما يصعب فهمه.

المشهد الذي أراه على الشاشة، تتحوّل شخصياته إلى مشاهد كثيرة، أوضاع يصنعها الخيال، يضيف إليها ما قد يبعد بينها وبين المشاهد، التي بقيت في الذاكرة، أغمض عيني، أترك لخيالي تجسيد الرؤى في الظلمة، ما تمنّيته، وما لم أعد له نفسي، يعجز الخيال عن تصور أشياء كثيرة.

الظلمة تعينني على التخيُّل، أخلق المشاهد؛ التي أتصورها، أبدل، أضيف، أحذف، أمارس الفعل الذي أختاره بالكيفية التي أريدها.

أمتلك قدرة على رؤية أشياء لم تحدث أمامي، ولا التقيتُ بناسها، ولا كلّمني عنها أحد، يستغرقني الشرود، وأنا أذكر الوقائع والتفاصيل، حتى تعبيرات الوجوه والأيدي، أستعيدها كأني رأيت، وليس بالتوقع أو التخمين.

أقاوم التشوُّش؛ الذي أعانيه في بدء محاولة التصوُّر، ساحات وخلاءات وميادين ومقاهٍ وحدائق وأعمدة نور ونوافذ وشرفات وشواهد قبور ومآذن وقياب وأبراج وناس باهتو القسمات، أشيد من الذاكرة ما غيَّبه الزمن، ربما جرّني الخيال إلى أشياء غير موجودة، تبيّنت أنني أنسى ما أتخيّله، ولا أنسى ما حدث بالفعل.

لا أتخيّل ما مضى، أحاول الشرود في صورٍ قديمة، كيف كانت، لا يسعفني تخيُّلي، صور ما أعيشه يجتذبها التخيُّل بلا إبطاء، يتسع المشهد، بألوانه وظلاله وعمقه، حتى المنمنمات الصغيرة لا تفلتها المخيلة.

الخيال — وحده — هو الذي يسدُّ فجوات الذاكرة، وغياب الواقع، أحَدَق في تقاطيع محدثي، يغيب في كلماته ما كنت أتوقَّعه أو أرجوه، أميل بنظراتي، أغمض العينين، أتخيَّل الشخص في صورة، أجسِّد ملامحها، تعكس الملامح — التي أتخيلها — ما عبَّرت عنه كلماته، اختلافي واتفاقي معه، ما إذا كان يستحق الود أو العداء.

تحوَّلت إلى المغامر تاتارين في رواية ألفونس دوديه، تمنَّيت أن أفعل مثل كيرك دوجلاس في فيلم «سبارتاكوس»، شغل الأمر خيالي، حتى بدأت في محاكاة ما رأيته منه، تكرَّرت المحاكاة فصرتُ الممثل الأمريكي نفسه.

إذا خلوتُ إلى نفسي، استعدت ما رواه أبي من حكاياتٍ، أتخيَّل الناس والوقائع، غاب التكوين الجسدي لسعد زغلول، ما رأيته في الصحف وكتب التاريخ، أتخيَّل رجلاً آخر غير مَنْ تظهره الصور، يحلُّ — بدلاً من الشيخ العجوز، ذي الشارب المتهدل، والتجاعيد، واللوجنتين المتهدلتين — شاب له عينان يشعُّ منهما بريقٌ، يمشي بخطواتٍ سريعة، يخطب بنبراتٍ واثقة، تحرَّك الناس، تعرضهم على الثورة.

قلتُ لنفسي، وأنا أغالب الدمع لوفاة نعيمة في ثلاثية نجيب محفوظ: «حدَّد الطبيب سن الثامنة عشرة لرحيل البنت الجميلة، الطبيب والبنت صنعهما الفنان، كان يستطيع إطالة عمرها!» حاصرتني الظروف، سوى ما أتخيله، ما أستطيع تخيُّله، واجهني العنف والقسوة، وما لا أستطيع مغالبتها، تبدو الطريق واحدة، يصعب أن يأخذني الخيال بعيداً عن المائل أمامي، وأدرك خطره.

جلستُ على حافة السور الحجري الفاصل بين جامع أبي العباس والدحديرة الواصلة بين الميدان والموازيني، تتناهى — من ورائي — أصوات مريدي جلوة المولد في وقفهم أمام زاوية الست مدورة، يراجعون الأحزاب والأوراد، يعدون الأعلام والبيارق واللافتات للانطلاق.

أرقب — بالتوقُّع — قدوم «جودو»، هو من أنتظره، غاب التصوُّر المحدد، وإن ثبتت في بالي قامة بيكيت الطويلة، النحيلة، وخطواته المتباطئة، وبشرته المتغضنة. عرفته دون أن يقدِّم أحدنا نفسه إلى الآخر، كأننا نصل ما هو قائم، أخذتني الهيبة، فلم أحاول التدقيق في ملامحه:

— أتريدني؟

هزرتُ رأسي بإيماء موافقة.

وهو يشير إلى نفسه: هذا أنا.

أحسست بارتباكٍ لا أعرف بواعثه:

- كنت أنتظرك.

أعاد القول: هذا أنا.

لم يغادرني الارتباك.

دون أن يجاوز لهجته الهادئة، المتباطئة: إذا انتظرت فلا بد أن تعرف لماذا!

ثم، وهو يهزُّ إصبعه: لا تعد حكاية الراعي وتخويفه من الذئب.

أزمعت أن أدخل عالمي، أغلق الأبواب والنوافذ، لا أتيح لأحد رؤية ما أراه، أمنع نفسي من مراقبة تصرفات الآخرين. أغلقت الباب بالمفتاح، استلقيت على ظهري فوق السرير المعدني، أهدق في السقف، أتخيل، الخيال يتيح لي الانفراد بنفسي، بما كنت أشعر بحاجتي إليه. تصورات كثيرة، شكَّلت العالم الذي أعيش فيه، أرتاح للبقاء داخله، كمن تلبَّست الروح ما أحيأ فيه من أشياء جامدة؛ الباب، السرير، اللوحة على الجدار، اللمبة، أشكال كثيرة من نشع الجدران والسقف وقطع الأثاث المتناثرة حولي، تنشأ بينها علاقات، أرى فيها ملامح وقسمات، أرقب تحركها، تتحرك الأشكال على الجدار، أو أتخيل تحركها، أصنع دنيا أجد في التعامل معها ما يبعدني عن الهواجس والمخاوف والمحاذير.

لا أنظر إلى المرأة بعيني الخيال، أتخيلني في وضعٍ أختاره، ربما تختلف صورة الخيال عن الصورة الحقيقية.

أذكر «أفق البحر»، قصة لي عن المينا الشرقية، تحوَّلت مساحة المياه بين السلسلة وقلعة قايتباي إلى بناياتٍ ومآذن وأبراج وقباب وحدائق، تبدَّلت الصورة تمامًا، القصة حلم طفولة، وجد تطابقًا في حلم حمدي الشيمي في «رباعية بحري».

سادت المخيلة، فصارت الدنيا غير الدنيا، غاب صيادو السنارة والطراحة والجرافة، وتناثر البلانسات والفلائك، ونداءات باعة الفشار والفريسكا، والمتأملون — في أثناء جلستهم على الكورنيش الحجري — أفق البحر، تحوَّلت مساحة المياه إلى حي كامل، مدينة صغيرة، علت أسوارها، مقصورة على الملوك والزائرين لهم، من يعبر الأبواب يخضع للتفتيش، بما يشعره بالغرابة.

جريت بالقلم على النوتة الصغيرة، أكتب أسماء؛ سنتياجو في «العجوز والبحر»، علي في ثلاثية «غرناطة»، زنوبة في «قصر الشوق»، زوربا في رواية «كازنزاكس»، ريري في «السمان والخريف»، ليلي في «الباب المفتوح»، مبروك في «عودة الروح»، صالح ورفاقه في لوحات «المعذبون في الأرض»، سعيد مهراڤ في «اللس والكلاب»، أحمد منصور في «الخيوط الأبيض»، «حوزي تشيخوف»، مبروكة في «الرجل الذي فقد ظلَّهُ»، «أحدب نوتردام»، محمد

أبو سويلم في «الأرض»، عزيزة في «الحرام»، ضحايا صهريج غسان كنفاني، مئات الناس، شغلتنني أحوالهم، تملّكنني الإشفاق والتعاطف، والرغبة في المساندة، والتغلب على الإحباط والإملاء والقهر، هي الظروف نفسها، أو ظروف مشابهة، تعانيها المينا الشرقية، سجّلت الأسماء في النوتة الصغيرة، أراجعها بالقراءة، أهتف بطلب الغوث، يبدون استجابة، يعينون الخيال في إزالة الأسوار، والعيش فيما يخصّنا.

غوامض يصعب فهمها

حين أصحو، أعرف أنني أفقت من حلم، وأنَّ الأحلام زالت، يستغرق الحلم زمنًا طويلاً من الوقائع؛ التي يغيب عنها الترابط، أنظر إلى ساعة يدي، أعرف أنَّ النوم استغرقني دقائق قليلة، كل ما رأيته في المنام حدث في هذا الوقت القليل، قد يعبر الحلم في ومضة يصعب التوقُّف أمامها، أو تأملها، وقد يطيل البقاء في الذاكرة، لا يغادرها.

غالبية الأحلام تأتي في اللحظات، ما بين اليقظة والنوم، أشعر بما حولي، أدرك — عند الصحو — أنني كنت نائمًا. من يواتيني في الحلم، لا تبدو ملامحه، كما ألتقيها في الصحو، تغيب التفاصيل والقسمات، هو الشخص الذي أعرفه، وإن لم يكن الشخص نفسه تمامًا. الحلم غلالة تخفي المنمنمات، ربما تختلط الملامح، تومئ إلى ما أعرفه، مَنْ أعرفه، وإن غاب الوضوح؛ الحلم لا يهب الصورة كاملة.

معظم الأحلام أنساها، يبقى من الحلم ما يشبه التشوُّش، لكن تفاصيل الحلم تغيب، أستعيد الواقعة من ألفتها إلى يائها، أربط بين الصورة الماثلة في الذهن بالحركة والانفعال والحجرات والردّهات والممرات والأقبية والسلالم والمآذن والميادين، ربما استيقظت على أحلام مشوشة، تختلط فيها الملامح والنداءات والهتافات والصرخات. أتملّك بين النوم والرغبة في الصحو، أحاول تحريك أطرافي، أهزُّ رأسي كأنني أنفص ما صحت عليه، لا أعرف بماذا حلمت، لأنني لا أتذكره، أنسى الكلمات والتصرفات، أضع رأسي تحت الماء، أتأكد إن كنت خرجت من الحلم.

ربما أفقت على صوتٍ يناديني، الصوت أميّزه بأني أعرف صاحبه، أهتف بعفوية: «من؟» يمتصُّ السكون سؤالي.

أصحو على هاتفٍ، أهبُّ مفزوعًا، أتلّفت، أحاول تبين مصدر الصوت، يبدو كأنه لأمي، أتذكر — على الرغم من موتها — نبرته المشفقة، تحثني على الصحو، ربما وصل الصوت

إلى سمع جارة الطابق الأرضي، يتخلَّل إلقاءها تحية الصباح خفُّ واضح، هو ما يسري في الهاتف الذي أستيظ عليه.

يختلط ما أراه، لا أفرق بين ما هو حلم، وما هو حقيقة، ما أراه في النوم، وما أعيشه في اليقظة، تتناوشني التخيُّلات والأحلام وأحلام اليقظة.

لا أبوح بأحلامي لأحد، لا أطلب لها تفسيراً، حتى الكوابيس أعيشها، أغالب ما يتناوشني فيها من الخوف والفزع والرعب، ما أنساه تماماً، أو تشبَّ تفصيلاته، وما تظل تفصيلاته واضحة في ذاكرتي.

وقفت للصيد على مكعب أسمنتي في المينا الشرقية، جذب السنارة ما لم أتبيَّنه، أخذني إلى البحر، غاص بي إلى الأعماق، رأيت ما لم أره من قبل من الحوريات، وأنهار اللبن والعسل، وأنواع الورود، الأشجار الكثيفة، الأغصان والأوراق، والأضواء الملونة. مساحة الشرفة متر في متر، تفصل بين شقق بنايتنا في شارع إسماعيل صبري، تصل المساحة المقتطعة بزاوية من شقتي الطابق الأول، أجلس فيها، أخلو للقراءة والكتابة، أطلُّ على الشارع من فجوة العمودين المتقابلين، يعلوهما أفريزٌ مزينٌ بالمقرنصات والنقوش، يأخذني الشroud، دون توقُّف عند معنى محدد، أقف وراء الشرفة، أرُدُّ ما أستمع إليه من هتافات المتظاهرين، أو مريدي الجلوات القادمة من أبو العباس إلى جامع الشيخ إبراهيم، أنظر — في جلستي وراء العمودين الحجريين — إلى الحياة في أسفل، المارة والدكاكين والباعة الجائلين ومواكب الختان وشوار العروس.

أسير في ميدانٍ واسع، على جانبيه بنايات مختلفة الطرز، تتفرع منه شوارع فرعية، لا أعرف الميدان، ولا إلى أين تمضي الشوارع المتفرعة منه، أميل إلى شارعٍ طويل، لا يبدو غريباً، لعله في وسط البلد، المنشية وما حولها، المحال على جانبي الطريق والواجهات الزجاجية واللافتات. أهمل إشارات المرور، أتجاهل السيارات في اندفاعها، الفرامل المفاجئة والكلاكسات والتحذيرات والشتائم. تتملَّكني الحيرة: «الطرق متقاطعة، أي الشوارع أختار؟ ما ينتظرني في نهايته؟»

لما صحوْتُ، كانت قبضتي مضمومة، تذكرت استرخائي في انتظار جذبة السنارة للصيد، أتشأغل بالتطلع إلى البحر الحصىرة وأسراب الطير والبلناسات وصيادي الجرافة، وعلى جانبي الأفق لسان السلسلة الحجري، وقلعة قايتباي، ومثدنة أبو العباس تجد لأعلىها موضعاً بين بنايات بحري.

وجدتني جالساً على المدرج الحجري بمسرح كوم الدكة الروماني، أتطلع إلى الأفق من جلستي على كورنيش المينا الشرقية، أهدق في الهلال المتبقي من القمر، أطل — من زيق

النعش المغلق — إلى مشييعي جنازتي، أميز أسرتي وأقاربي وأصدقائي، لا أعرف الكثيرين، الجنازة صامتة، تتخللها أحاديث هامسة.

أسير في طرقاتٍ يشحب ضوءها، تتفرّع إلى ممرات ضيقة، متداخلة، تفضي إلى قاعة واسعة، تتفرع منها ردهات، تحيرت لحظة: «أيها أسلك؟!»، ظلمة حالكة، لا أتبيّن فيها شيئاً مما حولي.

روى لي صبحي بهجت عن الدرويش حسن مستجاب، وما جرى بينهما في أثناء نومه، حدّد اسمه وسحنته وتكوينه الجسدي وموضع إقامته، لصق الجدار، أول شارع الموازيني. طلب أن يدفنه في مكان حدّده، في المسافة بين جامع أبو العباس والدحديرة خلف الجامع. أعاني انفصاماً بين ما أحاول بلوغه، وما يصدّني، بدت الأحلام بديلاً لما يصعب تحقيقه، أغمض عيني على ما أتمناه، ما أعجز عن فعله، أمنيّ النفس بأن أفكّ الغازه في النوم، تواتيني الأحلام؛ بما يصعب تذكّره، لا أعيه، تغيب دقائقه وتفصيلاته.

رأيتها جالسة على الكرسي المجاور للسرير، تبتسم، تبسط ذراعيها تأهباً لاحتضاني: «أتذكرك، هل تتذكرني؟»

وفي نبرة مشجعة: «التقينا كثيراً».

صحوت.

رأيتها جالسة على الكرسي، عرفت أنني لم أكن في حلم، ولا هي طيف، أو رؤيا تشغلني، أصاغت السمع لكلماتي، أفسّر لها تصرفاتي، وما تجد فيه خروجاً عن قواعد الجيرة. ربما استيقظت على حلم لا أتذكره، لكنه يترك في نفسي تأثيراتٍ حزينة، حينما يغلبني نومٌ ثقيلٌ، تغيب الأحلام، لا أتذكرها، كأنها لم تكن، في داخلي أصداء لأحلامٍ عشتها، لا أذكر تماماً ما قلته في الحلم، ولا ما قاله من بادلني الكلام، لا أذكر شيئاً مما حلمت به، كأنها فقاعات متلاشية، أما الكابوس فإنه يظلّ في ذاكرتي، أستعيد تفصيلاته، أنهض مفزوعاً، أغالب لهاث الأنفاس، وتفصّد العرق، وارتفاع ضربات القلب؛ بما يخيفني.

لا أعرف إن كانت رؤيتي له في اليقظة، أم في الحلم؟ عرفت أن رؤى الصحو تختلف عن رؤى المنام؛ رؤى المنام يغطيها الغيم. أرى في المنام ما لا أراه في الصحو، في الحياة من حولي أعيش حالة من أحلام اليقظة، لا أخلط بين حلم اليقظة الذي أكاد أعيه وألمسه، وبين حلم النوم الذي لا أكاد أتبيّن تفصيلاته، يزوي ويتلاشى عقب الصحو، وانشغالي بأمور حياتي، حلم اليقظة يصنع بشراً حقيقيين ومخترعين، ويصنع أطياناً وأخيلة.

أحاول أن أتذكر الأحلام بروايتها لحظة استيقاظي، أثبتتها في ذاكرتي، ربما تذكرت الحلم، أو استعدت منه مواقف متناثرة، أو لا يبقى سوى المشاعر الهائلة، أو المقبضة. ثمة أحلام تبدو — حين الاستيقاظ — واضحة، لأنها لم تكن كذلك، كأنها قد حدثت بالفعل، أرتبك لاختلاطها بأحداث عشتها بالفعل. أسأل: هل كان من زارني في الحلم في هيئته الصحيحة؟ لماذا التقيته في ذلك المكان دون سواه؟ هل ظل المكان على صورته، أو تداخل فيه ما بدّله؟

صحوت متعباً، أجهدتني الأحلام التي كنت هيأت نفسي لها، تبدّلت، داخلتها أشكال غريبة، تحوّلت إلى كوابيس، حاولت مغالبتها. أزمعت ألا أتعمد الحلم، لا أطلب النوم وفي بالي ما أريد استعادته، أخلي الذهن — تماماً — من المرئيات، أدرك — أحياناً — أن ما أعانيه هو كابوس، فأحاول الاستيقاظ منه، أحرك يدي، وأجاهد لفتح عيني، أصيح، أصرخ، حتى أصحو، أو يوقظني من يظن إلى معاناتي، تتداخل في الكوابيس نداءات وصيحات وصرخات وأوامر ومعارك، عانيت — في ثلاث ليالٍ متوالية — مطاردة حيوانات مفترسة، أشبه بالذئب، لم أر الذئب إلا في الصور، قاربتي بشرر الأعين والمخالب والأنياب، لو لم يوقظني الخوف، ربما متُّ في مكاني.

أحاول الصحو للتخلّص من الكابوس، لكن أنفاسه تظل في وجهي، أمُدُّ أصابعي إلى الكومودينو المجاور، أشعر بلامستها، أثق أنني أزحت الغطاء، لكن الكابوس لا يفارقني، كأنه احتواني تماماً، أتلّفت — لحظة استيقاظي — أتبيّن ما إذا كنت نائماً، أم أنني صحوت. أفزع للطرقات العنيفة، أهبُّ في مكاني، يختلط الصحو والحلم والكابوس، لا أدري وقت الطرقات. في الكوابيس أجساد معلقة في المشانق، وطيور تنقر أعين بشر، فتعميهم، ورقصات محمومة تؤذيها مخلوقات، ليست مما أعرفه من الكائنات، أهُمُّ بالفرار، فيفاجئني اختفاؤها، وصحوي من النوم.

عند الصحو تزول الكوابيس، تغيب الرؤى القاسية والانفعالات والخوف والتهويمات والوساوس والهذيان والتعب. غلت الأمواج في المينا الشرقية، جاوزت الكورنيش الحجري إلى داخل المدينة، ابتلعت البشر والبنائات والشوارع، وكل ما يعترض طريقها، تبيّنت نفسي، أحاول الفرار، لحقتني الأمواج أعلى مئذنة أبو العباس.

رأيت — فيما يرى النائم — أنني أغرق في البحر، الأمواج تحاصرني، أقاوم جذبها لي، أغوص في الحلم، كما في داخل الموج، أطوح ذراعي، ألتقط أنفاسي بصعوبة، صوتي يعلو عن آخره بصيحات الاستغاثة.

حاولت أن أقاوم الإعياء، وأنهض من فراشي، ظللت — لثوانٍ — عاجزًا عن الحركة، أتلفت حولي كأنني أنوي الاستغاثة؛ بمن يعينني على النهوض.

رأيت مخلوقًا غامض التكوين والملامح، يقترب، تلفتُ كأنني أبحث عن منفذٍ للفرار، يد سدّت فمي، وكتمت صوتي، لم أعد قادرًا على الكلام ولا الصياح، رأيتني فيما يشبه الحديقة، تطلُّ من الشجرة المجاورة أفعى هائلة، تهتمُّ بالتحرك إلى ناحيتي، جريت بآخر ما عندي، ظللت أعدو وأعدو، أخترق شوارع لم أرها من قبل، يترامى من خلفي وقع أقدامٍ تلاحقني، تطاردني، صحت على يدٍ تربت صدري، تحشرج صوتي بالخوف: كابوس.

حين خرجت من الكابوس، صارعت ما لاحظت تأثيراته، وأنا أغالب ضيق التنفس، أعاني ما يشبه التهيؤ للموت. استيقظت على صراخ زوجتي، غاب آخر اللحم، لكنني عرفت أن الصراخ أيقظني من إطباق راحتي على فمها، أخذنا الكلام — ربما — فقالت ما لم أستطع تحمُّله، أتبعث كلماتي وضع يدي على الفم المفتوح، لإسكات الصراخ. فاجأتني المخلوقات الوحشية الملامح، تراجعت — بوجهي وأعلى صدري — لتجنّب مخالبتها وأنيابها، أحرّك جسدي، كلُّ جسدي حاول المدافعة؛ حتى الصراخ، كأنني صحت على سماعه.

هل أصحو، فأرى المشاهد التي تقتحمني الآن؟

لم يغادرني الكابوس، أنفاسه الثقيلة تجثم على وجهي وصدري، كأنه يصرُّ على إحاطتي بصرخاته وأنيابه ومخالبه، حدست أنه سيطول، وأني — ربما — لن أفيق منه. أغمضت عيني، وفتحتهما، أتشكك إن كنت رأيت شيئًا، معظم الأحلام أنساها، أخفق في طرد الكوابيس، تعلق بذاكرتي، تلازمي، كأنها التصقت بلحمي. في الصباح، سألت نفسي: لماذا كان الحلم بهذه البشاعة؟

كنت قد أغمضت عيني على نية الثأر من فايز مصيلحي، أهوي بالساطور على الجسد المكوم، حتى تغيب ارتعاشاته، لم أتصوّر أن يجرّني اللحم إلى ما انتهى إليه.

لماذا الكوابيس ترتبط بالظلمة والقيعان؟ لماذا يعلو الأنين والصياح والصراخ؟ لماذا تبدو الملامح شائهة، تختلط بالأنياب والمخالب والأشباح؟

بعد أن تعددت الكوابيس صرّت أخشى النوم، أتباطأ في التوجّه إلى الفراش، تؤرقني الخيالات في ليالٍ كثيرة، أتوقع الأحلام القاسية والكوابيس، أحرص على الضوء الخفيف في الحجرة، يزيل الكوابيس، لا تواتيني.

عرفت أن الصحو هو ما يجب أن أحرص عليه، يسلمني النوم إلى استغراق عميق، ثم تتداخل الأحلام والكوابيس، يعلو إيقاعها بذهاب الاستغراق ودنو الصحو، يتداخل الإغفاء واليقظة، أبذل جهداً؛ حتى أستعيد التنبُّه.

ربما أتذكر الحلم، أستعيد تفصيلاته، وربما أنسى الحلم تماماً، حدث في المنام، تلاشي في الصحو، كأنه لم يكن. تدربْتُ أن أغمض عيني على الحلم الذي أريده، أصحو في الموعد الذي أحدِّده، لحظة أن يتحوَّل الحلم إلى كابوس، ربما يسَّرت لي الأحلام حلَّ مشكلات كثيرة، ما يبدو صعباً، أو مستحيلاً.

قسمت معظم يومي إلى وقتين: النوم والحلم، تواتيني الأحلام في أوقات النهار، وأنا بمفردتي، أو داخل المكتب، أو في قعدات السمر بالمقهى، أتمدَّد على السرير، أتأمل نشع السقف والجدران، أحاول النوم، أضع في ذاكرتي ما أريد الحلم به، ألتقط حتى الإيماءات والجزئيات والتفصيلات الصغيرة، أغمض عيني على استدعاء البحر، يأخذني إلى رأس التين والأنفوشي وحلقة السمك، أشرد في المقامات والأضرحة والمزارات والموالد وحلقات الذكر والإنشاد والتسابيح.

استغرقتني — لأول مرة منذ وقتٍ طويل — أحلامٌ تخلو من الأذى، ومتباعدة، تتيح لي ما لا ألتقيه في الكوابيس، الكوابيس تدفعني إلى الصحو.

آخر ما صحت عليه، رجل غائب الملامح، يقتعد قمة الهرم، وأنا بالقرب من تدلي ساقيه، يحيطه الفراغ، والناس مشغولون في عمليات البيع والشراء، كما لو أن قاعدة الرجل فوق الهرم لا تثيرهم، لا تحفزهم للفعل.

لم يكن الهرم في موضعه، تضاءلت مساحة الخلاء المحيط، الغلالة الشفيفة حول الرجل غيبت الملامح، حتى أقعدته أعلى الهرم، لا أدري إن اقتربت من القمة، أم استقرت أعلاها تماماً، كأن ذراعيه، امتدتا إلى التقاء البحر والأفق. داخلني خوف لنظراته في الفضاء المترامي، عجزت عن التقاط ما يضمّره في التحديق إلى نهايات الرؤية؛ الأسطح والبنائيات العالية والمآذن والأبراج، وما لم أتبيَّنه في تلفُّت عينيه.

غالبتُ ما أعانيه، وأنا أدعوه إلى النزول.

لم يسمعني، أو أنه تجاهل دعوتي المحذرة.

لزم ارتفاع صوتي تعبيرات محسوبة باليدين، فلا أسقط، صحت على انتفاضة جسدي، لا أعرف إن كان ما رأيته حلمًا أم كابوسًا، لكنه يعاودني؛ فيصعب مغالبتة.

ملاسة الضفاف

لاحظت الدهشة في عينيك لإشارتي؛ بما يعني أنني أنا الشخص الذي كنت تنتظره، لم أكن حدثك عن نفسي، وكنت قد قرأت حديثك عن أسرتك؛ التي قِدمت من بولندا إلى الخليل، لا تقتصر حياتك على المستوطنة التي تعيش فيها، لكنك تهبط إلى المدينة، تتجول في شوارعها وأزقتها، تنزل الأسواق، تجلس على المقاهي، تتردد على الساحات والخلاء ودور السينما. عانيت ارتباكًا، وما يشبه الخوف في الأيام التي سبقت السفر. الخليل.

فرض الخوف من العودة نفسه على لقائي بك للمرة الأولى. لم أذكر غير اسمي والجنسية الكندية التي أحملها، رسائل متبادلة — عبر الإنترنت — بين الخليل وكويبيك.

بدأت ملامح مغيرة لما تصورته، القامة المتوسطة، الممتلئة، العينان الضيقتان، الأنف الأقرنى، البشرة البيضاء التي تناثر فيها النمش، الشعر الأسود المنسدل على الكتفين. تتابع من ورائنا لافتات بالعربية والعبرية، أعرف بعضها، وحلت — بدلاً من التي كنت أعرفها — أسماء أخرى.

لم تكن العودة إلى الخليل مما أحاول تصوُّره، ألمم الجزئيات من المشاهد التي أتابعها في التلفزيون؛ المظاهرات، نقاط التفتيش، الأسلاك الشائكة، تقاذف الحجارة والرصاص المطاطي، القنابل المسيلة للدموع.

أعرف أن المكان تغير، طبيعي أن يتغير، ظلّ ناسه، وإن قِدم إليه ناس آخرون، تداخلت معتقدات وعادات وطرق حياة، لكنني لم أتصوّر التغيير الذي حدث، لم أرسم له في ذهني ملامح محددة، يصعب أن تتشكّل صورة ما أطمئن إليها. استعدت ما حدث بكل

تفصيلاته، فوهة المدفع الرشاش المطلة من الباب، دخل البيت أربعة أو خمسة جنود، لم يكسروا أو يدمروا، أخذوا ما في الأدرج، وما استطاعوا حمله من الأشياء الصغيرة. أبطأ السائق قيادته لرؤية جنود يحملون الأسلحة، يقفون على مفارق الطرق والميادين. أشار الجندي الواقف خلف الكردون الخشبي بالتوقف، وعدم الاقتراب، التفتُ — بتلقائية — ناحيتك، عندما أشار الجندي بيده: «يريد أن ننزل».

— ننزل؟!

— نترجل؛ لنعبر نقطة التفتيش!

امتدت الأيدي بالأوراق، قلبَ فيها، تنقلت نظراته المتفحصية بين الوجوه أمامه، والوجوه في الأوراق؛ استعدت ما تصوّرت أنني نسيته تمامًا.

المزروعات الممتدة في الأفاق من حولي، أعرفها جيدًا، أعرف أنواعها وأسماءها، التعريشة التي تغطيها خضرة النباتات المتسلقة، الأحرار، زهر الحنون الأحمر، العنب، التين، الزيتون، البرقوق، السرخس، الفترة ما بين ديسمبر ومارس هي فترة الجو البارد، واحتمالات سقوط الأمطار.

تابعت إشارة إصبعك إلى الأراضي والتلال الممتدة حتى الأفق: «أنت تشير إلى أماكن أعرفها جيدًا».

وأغمضت عيني كالمتذكّر: «روى أبي عن المئات من أشجار الزيتون التي زرعها».

وفردت ذراعي إلى امتداد المكان من حولي: «هنا نشأت حتى تركت فلسطين!»

الهجرة قلّصت أعداد الفلسطينيين، فرّوا — بالخوف — إلى الأردن بعد ١٩٦٧م، لم أكن ضمن الفارين، اضطررت لمغادرة الخليل غصبا، هاجرت بإرادتي للظروف المادية الصعبة، بعثت معصرة الزيتون، ورحلت.

لم أكن أستطيع أن أتجنّب الرحيل.

— لي ثلاثة أشقاء هاجروا إلى ثلاثة بلدان، وأختان أقامتا مع زوجيهما في الخليل. تنهّيت إلى اسم المكان عند نطقك له: ما اسمه؟

— كريات أربع.

— هذا المكان؟

— طبعًا.

— كان خلاء.

— ربما، أعرف الاسم منذ طفولتي.

ترامى عواء من موضعٍ لم أتبيّنه.

— هل تعاون هجمات الضباع؟

— أنا لا أعرف حتى شكل الضبع، ربما كان ذلك في القديم.

كان الليل يأتي بعواء الضباع، نغلق أبواب البيوت، لا نغادرها إلا لضرورة، كنّا نخاف هجمات الضباع، قلتُ: «هذه الساحة، هل هي في موضعها منذ زمن؟»

شوحت بيدك: «أزيل بيت متهدم، تحوّلت الأرض إلى هذه الساحة.»

— كان البيت لأسرتي، وكان آخر ما رأيته قبل أن أرحل.

البيت شيّد قبل أن أولد، وربما قبل أن يُولد أبي، موضعه متفرد فوق التلة الخالية بدلاً من شجرة زيتون، كان الناس ينسبون البيت إلى لقب العائلة، العابد، هو بيت العابد، لا أعرف الأسماء التي تبدأ باسم عبد ربه وتنتهي إليه، لكنها — وفق قول أبي — أسماء كثيرة، وقال أبي: «إن لديه أوراقاً رسمية تُثبت حقّه في البيت، وتتيح له استرجاع حقّه.» أخرج من بين ثيابه مفتاحاً هائلاً، قلت في دهشة: لماذا تركته، آلاف العرب ظلّوا في المدينة. — الآلاف قُتلوا أو فرّوا.

رفت على شفتيك ابتسامة تأسّف: دفعت ثمن الخوف.

في تهوين: كنت في التاسعة.

تابعت ما حدث؛ لبعد المسافة، اقتصرت وقفتي على رؤية الجندي، وهو يدفع المرأة بالمدفع الرشاش، يلاحقها بركلاتٍ من قدمه، انبجست الدماء من وجهها وفمها، ارتجف جسدها المتكوم حول بعضه، قبل أن يهدأ تماماً. لم أعرف ماذا قالت، ففعل الجندي ما فعل.

هرع رجل — بابتعاد الجندي — ناحية المرأة المتكوّمة، حملها على ذراعيه، لا أعرف إن كانت قد ماتت، أم أنّ الرجل أفلح في إنقاذها، تمنيت لو أن الجندي ألقي سلاحه، وتعاركنا بالأيدي.

تنقّل الجنود بين البيوت، يفتشون، يقلّبون الأثاث، يمزقون المراتب والوسائد، يأخذون الأوراق والكتب والأقلام والحلي، ما لا يجمعه معنىً محدد. الوجوه مستغرقة، والأيدي مدلاة، والعجز يقتل الفعل.

قلت وأنت تسبقني إلى شوارع جانبية: «الشارع التجاري مغلق.» هزرت رأسي مؤمناً: «منذ حادثة الحرم الإبراهيمي.»

لاحظت — بطرف عيني — مغالبتك للمفاجأة.

زرنا الحرم الإبراهيمي، دُرنا حول السور الهائل، أطيل تأمل الحجارة الصلبة المصقولة المقطّعة بشكلٍ هندسي، والمنارتين، والتكية، والباب السليماني، والباب الشرقي، والباب الغربي، وباب الدرج الأبيض، وباب المغارة، والمقامات السبعة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وسارة ورفقة ولائقة ونسر صلاح الدين، زرنا مسجد ابن عثمان، ومسجد القزازين الصغير، ومسجد القزازين الكبير، ومسجد البركة.

«كنت أصحب أبي إلى الأقصى، أجاوره في الجلوس أمام المنبر. وهزرت إصبعي: ليس هذا هو المنبر!»

قطبت ملامحك بالتذكّر: أعرف أنهم استبدلوا به منبراً جديداً بعد حريق الأقصى. وتنهدت: زمان!

ثمّة ما أتذكره، وما لم أره من قبل، الكثير من المقدسات الدينية هي أماكن عبادة لليهود؛ حتى الحرم الإبراهيمي أذهلني تحوُّله إلى معبد لليهود، وضعوا فيه كتبهم الدينية، الصحن المكشوف في الداخل يضم الجامع المعقود، وأضرحة إبراهيم وسارة وإسحاق ورفقة، الغار الشريف يضم مراقد الأنبياء وزوجاتهم، له ثلاثة مداخل، أبوابها إلكترونية، أو لولبية، اللافتات على أضرحة الأنبياء بالعبرية، لم تكن هذه العدسات موجودة من قبل.

– هل تنقل كل شيء؟

أغمضت عيني، أستعيد ابتهالات ما قبل الأذان، الأذان السلطاني، الصلاة على النبي، الدعاء للأنبياء، التحميد، التسبيح، الأذان الأول، الصلاة.

سِرنا في الأرض الصاعدة والمنحدرة، لم تدعني إلى زيارة المستوطنة التي تقيم فيها، أعرف أنها واحدة من عشرات المستوطنات. هذه الأرض، لم يكن يظاً فوقها إلا أهل فلسطين، يتكلمون العربية، ويقراءون بها، يتصورون زواراً، وإن لم يتصوروا أن يأتي الزوار، فيقيمون بينهم، البيوت قديمة من الطوب الأبيض، متناثرة فوق التلال، غالييتها من طابق واحد، تحيط بها أشجار الزيتون. معظم شوارع المدينة خالية، إلا من العسكريين، أزياء كاكية وبنادق ومدافع رشاش، أعرف أن اليهود ليسوا فقط من يرتدون الملابس العسكرية، اليهود المدنيون يرتدون الثياب العادية، مثلي، مثل الناس كلهم، وإن ميّزت ذوي الكوفية والجلباب؛ بأنهم فلسطينيون.

كنت قد نسيت الفصال في البيع والشراء، تلقّي السعر الأعلى، تقديم السعر الأقل، رفع السعر من البائع، وتنزيله من الزبون؛ حتى يستقر السعر الذي يقبل به البائع والشاري، ليس السعر المغالي فيه الذي عرضه البائع، ولا السعر الذي قلّصه الزبون، نسيت ذلك كله، دُكرني به الثمن الذي عرضه بائع الكوفيات، لكنه أصرَّ على ما عرضه.

لاحظت تَلُفْتُ نظراتي بين البيوت في أعلى الطريق، والبيوت من ورائنا.
أدركت من سحن الواقفين والمارة والمطلّين من النوافذ في البيوت المتقابلة، أن الأسر
اليهودية تسكن في مواجهة الأسر العربية.

- حاذر من سقوط شيء!

أشرت إلى البيوت في أعلى: أعرف ما في الداخل.

وسألت متضاحكًا: هل قذفوا بهذه الأوساخ؟

كانت الأرض مغطاة ببقايا الطعام وعلب السجاير والكراتين وقطع الزجاج والحجارة،
وكانت أوراق الشجر قد بدأت في السقوط.

ران على صوتك تأسّف: الأطفال يعاكسون الناس في أسفل.

استطردت، وأنت تدفع بي لصق الجدار: الحجارة قد تسقط عليك!

مزجت ذكرياتي بالخيال، ما عشته، وما أتخيل أنه قد أضيف إلى المكان؛ التلال،
البيوت القديمة، البنايات الحديثة، العالية، الطرق الصاعدة والمنحدرة، نقاط التفطيش،
أشجار التين والزيتون والليمون والبرتقال واللارنج.

كلمتك عن الأشياء؛ التي يحرص العرب من أبناء فلسطين على اقتنائهم لها، في داخل
الوطن أو خارجه؛ مفتاح بيت، مستند ملكية، قصاصة جريدة، صور أشخاص، وكل ما
يذكّرهم بالأعوام القديمة.

ملاحظاتك المتواليّة، وصمتك عن ملاحظاتي، لم تتيح لي أن أشير إلى معنى لقائنا،
تصورت أنك تتعمّد التجاهل، فيغيب ما يجب تذكّره.

تخلّل حواراتنا قولك: «أريد أن أعرف شيئاً عنك» كان يجب أن ألتقط الخيط، أكره
حتى نهايته، لا أفلت حتى التفصيلات الصغيرة، الإرجاء إلى ما بعد يفوّت فرصاً كثيرة،
أزمعنا أن تستغرق زيارتي أياماً تأذن بالألفة والبوح، لكن توالي الأيام، تقصّصها، أنساني
حتى القول: إني من الخليل، من الأماكن التي ظلت صامتاً، وأنت تروي، وتوضح، وتبدي
الملاحظات.

تساعد في نفسي ما لم أبح به، لماذا بقيت على صمتك، وأنا أحدثك عن البيوت والأسواق
والشوارع والأزقة والشجر والحقول؟ لماذا لم تتكلم؟ حين قلت: «الخليل هي مدينتي؟»

شمس الليل تؤذن بالمغيب

تنبّه على قرقعة عجلات «البنز» على الأرض الحجرية، اتجهت نظراته إلى أول الشارع الصغير، ينتظر رؤيته. عرف موعد قدومه إلى القهوة، وانصرافه منها، يغادر الحلقة إلى أبو العباس لصلاة العصر، يعبر الميدان — بعدها — إلى شارع السيالة، حتى ناصية العوامري، يدخل قهوة الزردوني، عرف الكرسي الذي يختاره الرئيس المغاوري إلى يسار المدخل، يكتفي بالجلوس على الرصيف، ربما لأن الجرسون مدين يعرف موعد قدومه، فهو يسرع بالصينية فوقها كوب ماء، وفنجان أعشاب مغلية، لا يبذله، يتلفّت حوله — بعفوية — كمن يبحث عن شخص ما.

أول مرات قدومه إلى القهوة داخله قلقٌ، لم يعرف له سببًا محددًا، وإن انعكس في الشroud، وتشتّت الأفكار، واستعادة الكلمات التي ينبغي أن يردّها بها. نصحه الباعة في الحلقة — قبل أن يلبي دعوة الرئيس المغازي — أن يُظهر الموافقة على ما يقوله، حتى لو بدا في الكلمات ما يثير التساؤل أو القلق، إبداء الموافقة شرط لضمان العيش، يفارقه ليخلو إلى نفسه، يناقش ما يجب أن يفعله. مضى المغازي إلى الكرسي، الذي خصّصه له صديانه، يختلف عن كراسي بقية معلمي الحلقة، استبدلوا بالكرسي المجدول من الخوص كرسياً، يكسوه قماش مخملي أحمر، وتغطي مسنده خيوط بلون الذهب، إن قام عنه الرئيس ظل خالياً، حتى يعود إليه. أدار قبضته حول كوب القرفة بالزنجبيل، مشروبه الذي يفضّله، أعاده إلى الطاولة، والتقط مبسم النرجيلة، اكتفى بالقول وهو يشير إلى نفسه: أنا بلال عبد ربه.

نفذ المغازي مبسم الشيشة أمامه؛ كمن ينفذ الهواء: أنت ابن حلال.

وفي لهجة مبطنّة بالود: «أنت تختلف عن سواك ... أطمئن إليك».

— الطمأنينة؟

لم يلحظ قوته؛ التي لاحظها الرئيس المغازي ... يعيش حياته؛ بما تيسر له الأوقات، نبّهه الرئيس إلى قدراته، ربما شاهده، وهو يحمل الطباي في الحلقة، أهمل نصيحة الصياد عتريس الفشني، من أنه إذا نفذ ما يطلبه الرئيس المغازي فسيصير قاتلاً، يستطيع أن يفيد نفسه، ويفيد الرئيس أيضاً.

قال المغازي: انس القرفة بالزنجبيل ... كوب الشاي بالحليب هو أجمل ما نبدأ به يومنا.

— هل رأيتني في الحلقة، أو في قعدة الزردوني؟ أو أن رجالك أبلغوك بما قد لا أعرفه؟ أخذته الفكرة، شغلته عن المخاطر التي تواجهه، خصّه بإقبال أكثر من إقباله على بقية الرجال، كلّمه — في خلو الحلقة وقت الغروب — عن رؤيته له — للمرة الأولى — في مولد أبو العباس، المطواة بديل للسيف والشومة وسلسلة الحديد، من تلامسه يترك الساحة الدائرية، تلاصق حولها الزحام.

تعدّدت جلساته إلى الرجل، يبدي الخضوع والتذلل، يشتري ولا يبيع، لو أن الرئيس سأله فيما يشغله، ربما لا يجد ما يقوله، يأخذه الشرود، وتصور ما ينبغي فعله. كان صوت ارتطام الأمواج بالمصدات الأسمنتية يتراعى من النوافذ العلوية الصغيرة، قال الرئيس وهو يتهيأ للقيام: أريدك في أمر.

لم يجد في نفسه حتى القدرة على السؤال، ولا مناقشة خطورة ما يدفعه الرئيس إليه، استبدل بنظرته المتعاطفة، المشفقة، نظرة صارمة لم يعدها من قبل.

لاحقه بالقول، وهو يتهيأ لمغادرة الحلقة: «أراك صباح غدٍ في قهوة الزردوني.» رُويت عن أفعال الرئيس المغازي حكايات كثيرة: احتاز الأموال، وظلم الحقوق، ونسب إلى نفسه ما يملكه سواه، وتناقل الناس أخبار القتل الذين استلبت أرواحهم في ظروف يعلمها الجميع، تشير الإيماءات إلى البواعث الحقيقية والأيدي المنفذة، لكن الصمت يظل سادراً، ما رآته الأعين كوابيس لا سبيل إلى استعادتها، قيّد أعوانه الصياد أبو علي سليمان في فلوكة، دفعوا بها إلى البحر، يقتله الجوع والشمس، أو تبتلع الأمواج الفلوكة، إن دخل على مأمور قسم الجمر، انتصب له واقفاً، وبسط ذراعيه لاحتضانه.

يتنقل الرئيس بين الحلقة والقهوة، يجلس بمفرده أو يحيط به أعوانه، وأوامره كلمات قليلة، ينفذها الأعوان بلا سؤال ولا مناقشة، من يتردد ربما خسر حياته. يكتفي بالقاء السلام من دون أن يلتفت، يظل صامتاً، منشغلاً بالتحديق في الفراغ، يعزل نفسه، حتى عن صيحات لاعبي النرد والدومينو والطاولة. يعود إلى ما حوله بقدم الجرسون مدين،

في يده صينية نحاسية صغيرة، فوقها كوب ماء وفنجان أعشاب مغلية، في اليد الأخرى نارجيلية، ينحني يسوي الفحم بالماشة، يتبادلان كلمات هامسة، قبل أن يغيب الجرسون في الداخل.

بمسم النرجيلة بين شفثيه في الحلقة، وعلى القهوة، والأوامر والملاحظات والهمسات والفصال، وعلى بركة الله، تتعدد أوامره بالقتل، وإسالة الدم، والضرب الذي لا يخلف أثراً، والشتم القاسي، والتهديد؛ لكل خطأ عقوبة تساويه، ما يقضي به يعنى أعوانه بتنفيذه دون إبطاء، لا يبدي اهتماماً بمصائر القتلى، ولا بالمخاطر التي يعانها الأعوان.

يتناثر الأعوان في المساحة الممتدة أمام مجلس الرئيس، يترقبون نداءه بالاسم، أو إشارته بهزة الرأس، أو باليد، يهرع من يدعوه، ينتظر الأمر متشابك اليدين، متدلي الذقن على الصدر.

لم يعد يرى مصيره إلا في الجلوس بالقرب من مجلس الرئيس، يقذفه بالأوامر، وعليه التلبية، لا يذكر أنه التفت ناحيته إلا ليلقي الأوامر: «اضرب فلاناً، لا تترك فلاناً قبل أن تعجزه عن الحركة ... ماء النار سيمنع فلانة من التباهي بحسنها.» تضايقه لمعة عيني الرئيس، وهو يروي له ما فعله، يستحثه — بإيماءات رأسه — على استكمال روايته، تتفحص نظراته ما لم يقله، أو أخفاه: «لم أرَ ما فعلت، فارو لي ما يضعني في قلب الحكاية.»

دخل خناقة في ميدان المنشية، سقط بطعنة سكين ذهبت به إلى المستشفى الأميري، طال ترقبه زيارة المعلم، سبعة أيام بلياليها، غادر المستشفى دون أن يسأل، أو يصحبه أحد، عرف أن المعلم يهمله، يستصغر شأنه، وأنه — في نظره — بلا قيمة. تنبّه لقول الجرسون طاطا: الرئيس يطلب من رجاله أن ينفذوا أوامره بلا أسئلة.

— لا أرفض العراك مع شخص يعادي الرئيس، لكنني أحب أن أعرف السبب.

وعلا صوته بالحيرة: لماذا أتعارك؟

أردف كأنه يخاطب نفسه: أنا لا أرفض حتى القتل، بشرط أن أعرف لماذا؟

قال طاطا: أنت لم تتكلم، وأنا لم أسمع.

ووشى صوته بنبرة تحذير: من طبع الرئيس أنه لا يحتمل الأسئلة!

إذا كان التخلص من أعداء الرئيس حلقات لا يعرف عددها، تتواصل بلا نهاية، فإن التخلص من الرجل نفسه هو النهاية، التي يسترد فيها الأتباع — صار واحداً منهم — نفوسهم، لا بد — كي يحتفظ بحياته — أن يختفي الرجل، لا يجد الأتباع من يخضعون لأوامره، ويسرعون لتبليتها.

لم يقتل في حياته، وإن تمنى أن يقتل الرجل، يتولى هذه المهمة بنفسه. رفع مدين النرجيلة بيد، والصينية باليد الأخرى، وعاد إلى الداخل، فطن إلى أن ما يعد له حان، فتهياً للقيام؛ سبقه في ترك القهوة.

مال إلى شارع العوامري، في تقاطعه مع السيالة، بدا شحوب الضوء في نهاية الشارع الضيق موضعاً مناسباً، تابع خطوات المغازي من القهوة — عبر الحواري — إلى الحلقة، طالعه عند دخوله المساحة الرمادية.

تبين — من نظرة الرجل — أنه لا يريد العراك، يشغله الفرار بحياته. لم تكن المعارك بينه وبين من يوصيه به المغازي تستغرق أكثر من ثوانٍ، يلوح بالمطواة في وجه الرجل، قبل أن يجد الموضع الذي ينفذ بها إليه. إذا بدأ الضرب، فقد السيطرة على نفسه، الضربة الأولى تمتد إلى الضربة العشرين والثلاثين.

ربما أخطأ قذفة المطواة في صدر الرجل، أو أنه تعمّد أن يخطئ، النظرة المتشككة في عينيّ الرئيس المغازي لم تحجب شعوره بالراحة؛ حينما قذف الرجل بنفسه في بابٍ مفتوح خلفه، أفلت بحياته دون أن يفتن إلى مصدر الطعنة التي أخطأته.

إذا واجه عدواً لم يهيئ نفسه لملاقاته، فإن الهتاف باسم الرئيس المغازي يكفل طلوع عشرات الأتباع، من البيوت والدكاكين والقهواوي والمساجد والمقامات؛ وحتى من الخرابات، يشاركونه العراك ضد المعادين، يرُدُّونهم إلى ما بعد الحي، يعودون إلى أماكنهم بعد أن يطمئنوا إلى سلامته.

أذن له أن يحمل اسمه في الحلقة وخارجها، هو من أعوانه عند البيع والشراء والجلوس على المقاهي، وفي حلقات الذكر وموالد أولياء الله، اسم الرئيس حصّنه من الاعتداء، أو نية الغدر، يتيح له الطمأنينة والسلام.

لما كرّر الرئيس عرضه، بدت المشكلة حلقات ينبغي فصمها، في لحظة لا يتوقعها، ربما قبل أن يتجه إلى البحر وقت الفجر، أو عقب عودته من الصيد، أو عند جلوسه على القهوة، يستدعيه صبيان المغازي للقاءه، يعرف أنه سيأمره بفعل ما يجب عليه فعله، من يعمل في خدمة الرئيس ليس له في نفسه حق، هو خادم ينفذ ما يُطلب منه، لا يسأل، ولا يناقش، ولا يبدي رأياً، حتى إن كان موافقاً. نزع الرئيس النرجيلة من فمه، كست ملامحه النظرة الصارمة: «أرجو ألا تخطئ في المرات القادمة.»

استعاد المشهد من بداياته، القبول بالخطوة الأولى يفضي إلى الخطوة التالية، لا تنتهي إن ظل الرئيس على عداوته، لا شأن له بما يدفعه للمشاركة فيه، أخطاء القذفة — في مرة

تالية — ربما نقل عداوة الرئيس له، تجرُّ وراءها عداوات الأعوان، لا يستطيع حتى الاختفاء في البيت.

تصاعدت في داخله كراهية هائلة، اندفع ناحيته بكل ما يكتمه نفسه. تَلَفَّت المغازي — بعفوية — حوله.

كان المكان خالياً، إلا من درويش راح في النوم على بسطة البيت المجاور، حاول أن يقفز إلى داخل البيت، مدَّ بلال عبد ربه قدمه، تعرَّض المغازي، وسقط من طوله، تلاحقت ركلات بلال في الجسد المتكوم، حتى تغطى الجلباب بالدم المنبثق من الوجه والأجزاء الظاهرة من الجسد.

رفعه بيدين متقلصتين، وجَّه إليه ثلاث ضربات متوالية بجانب فكِّ الأيمن، مال وجه المغازي، لوَّح بلال بمطواة، أدارها حتى وجد منفذاً في العنق، فسدَّدها، لم يستطع المغازي الدفاع عن نفسه، دفعته الضربات المتلاحقة إلى الصراخ والصيحات المستغيثة. حاول المغازي — في صراخه — كتم انبثاق الدم، بدا الصدر مكشوفاً، توالى الطعنات حادة، نافذة، فسقط الرجل من طوله. ألَّف الناس دائرة لصق الجدران، وعلى أبواب البيوت والدكاكين، وتقاطع العوامري مع السيالة، يشاهدون ما لم يتوقعوا رؤيته، حلَّ الخوف في النظرات المتابعة، اقتصر ردود الأفعال على المشاهدة، لا محاولة للتدخل، سكنت الكلمات والتصرفات، لم يعد إلا صيحات الغضب ترافق كلمات بلال، وتأوهات المغازي المستذلة.

بعزمه شاط بلال الجسد المتكوم على مؤخرته، حاول الجسد أن يتصالب، لكنه تطوح كمن أصيب بدوار، اختلج، وسقط من طوله، ثم سكن.

هرولت خطوات بلال عبد ربه، حين وصل إلى انحناء الطريق لرأس التين، استدار خلفه، ألقي نظرة سريعة، كمن يتوقع ملاحقة.

إيقاعات

خطرت الفكرة في باله كالومضة، لم يكن — في تلك اللحظة تحديداً — يفكر إلا في اللقاءات التي تملأ أيامه الأربعة في بيروت، محاضرتان، وربما ثلاث في اليوم الواحد، وأحاديث في وسائل الإعلام، ولقاءات بمسؤولين، لم يعد نفسه؛ حتى لمجرد السير في شارع الحمراء الذي يحب محاله ومقاهيه وصخب الحياة فيه.

ومضت الفكرة، استعادها، أزمع أن يخضعها للمحاولة، إذا جاوز الإخفاق، فهو يستعيد الثقة الغائبة، وإذا لقيت المحاولة صدوداً؛ فعليه أن يظل السر مقيداً داخل حجرته في الفندق، القيد نفسه؛ الذي خلّفه في حجرته في الشقة المطلة على نيل الزمالك. قال الطبيب: «التردد يؤدي إلى الحوادث».

كان يقصد حوادث المرور، لكنه لاحظ أن المعنى ينسحب على كل شيء. تحسّس — بعفوية — موضع العملية الجراحية في صدره، كيف يواجه النظرات المشفقة، أو المشمّزة؟ ويخ نفسه لأنه استدعى الفكرة، وقلّبها؛ يدعو المرأة إلى زيارته في حجرته، يقضيان معاً وقتاً لم يستمتع بمثله من قبل. «أخادمة الغرف؟»

يفرّ من المشكلة الحقيقية؛ فيثير مشكلات هو في غنى عنها. قضى موظف الاستقبال على تردده: «هل يقدم نفسه باسمه الحقيقي، أو يخترع اسماً يختفي وراءه؟» طلب الموظف جواز السفر، تأمل البيانات، وأودعه خانة مفتاح الحجرة: «سنعيده عند نزولك».

أضاف الموظف بلهجة مرحّبة: كم عدد الأيام؟

— ثلاثة أيام أو أربعة.

ثم وهو يتكلّف ابتسامة: «مهمة عاجلة».

استشرفت نفسه حياة غير التي يحياها، غلبته الحيرة، فهو لا يقدر أن يفعل شيئاً، ما يؤله أنه لا يقوى على البوح، السر في داخله، لا يكشف عنه، يقاوم الرغبة في أن يتكلم مع أحد، يفرض عما في نفسه، يحكي، ويحكي، لا يسكت حتى يهدأ، قيمة الصمت أنه يخفي ما نعانیه، لو أن الملامح أظهرت ما في النفس، ما قدم من القاهرة، العجز معه يصحبه إلى أي مكان يقصده، ليس في جسده، ولكن في مواجهة الظروف.

قالت فادية: ماجد يستهلك نفسه في إظهار الغضب، لكنه لا يؤذي.

وعلت ضحكتها، فاهتز صدرها: ماجد كائن مسالم.

ينظر — في استياء — إلى نظرتها المستخفة، تجيش مشاعره، يعلو صوته بما يمور في داخله، يبدي رأيه، ويعلن ما ينوي فعله، الابتسامة على شفيتها تزيد من إحساسه بالغضب، يغلبه ارتباك لا يفلح معه في أن يقول شيئاً، يغمض عينيه، يروح في عوالم يصعب عليه تبيينها، خليط من المشاعر والذكريات والميل إلى الفضفضة، حتى المواقف التي لم تشغله في وقتها، ونسيها، تستعيدها ذاكرته، وتملؤها. أهمل النصيحة، بأن يلغي سفره إلى بيروت، أو يؤجله. تحدّث علي عبيد عن اتساع حرب المليشيات، والقتل على الهوية، داخله شعور لم يستطع تفسيره، كأنه التحدي، أو الرغبة في المغامرة، تأكيد ما يطمئن إليه في نفسه، ولا يراه في أعين الآخرين؛ حتى ضابط الجوازات في مجمع التحرير لم يوقّع على الموافقة إلا بعد أن دفع إليه علي عبيد بطاقة التوصية.

أدار الولد النوبي الملامح مفتاح الحجرة، ودفع جرار الشرفة الزجاجي، أطلّ من الطابق التاسع في الفندق ذي الطوابق العشرة في أسفل طريق الكورنيش، في زاويته المطلّة على صخرة الروشة، كأنها ساقا عملاق في قلب المياه. وأكشاك الملابس والكاسيتات والطعام، وعربات الفول والترمس والذرة متجاورة فوق الرصيف، ويتقافز في الزحام باعة الورد والفلفل والياسمين، ومياه البحر تمتد إلى نهاية الأفق، فوقها سماء صافية، تتخللها سحب بيضاء.

تأمّل وجهه في مرآة الحمام.

التجاعيد دوائر أسفل العينين، وحول الفم، وتتباین مع شعره المصبوغ بالسواد، والبشرة باهتة، والوجنتان غائرتان.

استعاد الفكرة في أثناء وقوفه أمام المصعد، حرص على أن يتجه بنظراته — فور خروجه من المصعد — إلى الناحية المقابلة لكاونتر الاستقبال، يفتن الموظف إلى مكانته، فلا يهبه الفرصة كي يلقي أسئلة، أو يعرض خدمات، هو واحد من نزلاء الفندق، لا شأن له بأحد، ولا شأن للآخرين به، لكن: «كيف يجد ما يطلبه؟ كيف تنشأ العلاقة؟»

لو أن موظف الاستقبال، أو أي عامل في الفندق، فطن إلى ما أزمع فعله، فستؤذيه الفضيحة بما لا يتصوره. لحقه صوت عادل: «أريد نقودًا.»

اتجه ناحيته بنظرة غاضبة: «أنا أنفق على البيت كله، وليس عليك وحدك.»
- أردت أن تصبح أبًا؛ لذلك ثمنه.

ثم، وهو يطرق أصابعه: «أريد نقودًا.»

هز رأسه دلالة الرفض، قال عادل: «إذا لم أحصل على ما أريد، فلن أضمن تصرفي.»
تفجرت في داخله رغبة في الشتم، أو في العراك: «افعل ما تشاء!»
وهو يزيح شهادات التقدير والأوسمة والميداليات عن الأرفف والجدران، ويقذف بها من النافذة المطلة على بقايا بناية متهدمة: «هذا ما أفعله.»

اكتفى بنظرة الذهول تملأ ملامحه، فكر في أن يمنعه، يصرخ فيه أو يدفعه أو يصفعه، لكن العجز شل تفكيره وتصرفه، خشي تصرفًا لا يتوقعه، ماذا يفعل لو أن الولد ردَّ إليه أذيتَه؟! يصفعه، فيرد عادل الصفعة بمثلها، ينتهي كل شيء، لا أبوة، ولا بنوة، ولا أسرة، لا أي شيء، يتمنى الموت.

قال بنبرة الإشفاق في قول علي عبيد: «أنت لا تعمل حسابًا للمستقبل.»
- معي ما يكفي المستقبل.

وتلكأت الكلمات: «يهمني أن أنفق ما أملكه في حياتي.»

ثم، وهو يصرُّ على أضراسه: «لا أريد أن يرثني ابني في مليم واحد.»
- أعطاك الله العمر ... لكنَّ الحرص على ألا يرثك عادل يثير التأمل.
- لماذا؟

يقلِّب الكلمات في ذهنه، فلا يجد إجابة محددة، يرفض لأنه يريد ذلك: «ما معنى أن أعمل وأكسب، ثم يرث أي أحد ما ضيعت العمر لتدبيره؟ يجب أن يعلم عادل وفادية أنني قادر على اتخاذ القرار، أنا أرفض وأقبل وأمنع وأعطي، أتخذ قراري بالثقة كلها، أملي، إرادتي، لا تشغلني ردود الأفعال، ما أفعله ... هو حقي.»

اعتذر عن المرافقة بأنه يريد السير في شوارع الكويت بمفرده، سأل عن السوق، استعاد التسمية: واجف؟

- إنها مجرد سوق شعبية.

أهمل التحذير، وسأل عن الطريق.

مضى من ساحة الصفا. الأسقف الشبيهة بالقيساريات دفعت معظم المحال إلى إضاءة الداخل، غالبية البضائع قديمة أو مستعملة، وفي الوسط طاولات خشبية، فوقها ملابس نسائية ومفروشات وسجاجيد، استعاد زحام وكالة البلح.

قال الرجل: «أفهم ما تريد التعبير عنه.»

ثم، وهو يحدجه بنظرة تتوقع رد الفعل: «سأعد لك وصفة لا تخيب!» غلبه الارتباك، أدرك أنَّ الرجل خَمَّن عكس ما يعانیه، قال: «أنا لا أشكو ضعفاً.»

ابتسم الرجل بالحيرة: «ماذا تشكو إذن؟»

كان يضايقه التقاط تلميحه؛ بما يعانیه بمعنى لا يتغير، تقتصر الأحاديث على ما يضيف إلى حيويته، وتقترن بالإيماءات والكلمات التي يكتنفها الغموض، ما يعانیه كائن في داخله، لا دخل له بمرض، ولا يحتاج إلى شيء؛ مما يشيرون عليه به، شيء لا يدري مصدره، وإن استقرَّ في داخله، يثيره، يشقيه بالإحباط، وبأنه غير قادر على التصرف وعاجز.

قال البائع في شارع الحبيب بورقيبة: «أفهم ما تريد التعبير عنه.»

أضاف، وهو يقدم له حبة صغيرة: «خذ هذه، تجعل ما تعانیه من الماضي.» وضع الحبة بين شفتيه، تبعها بجرعة ماء، تصاعد — في اللحظات التالية — ما لم يخطر له ببالي: خيالات ومشاهد ونشوة تقربه من الغيبوبة، سرى ما يشبه الخدر في أعصابه، أغمض عينيه في استسلام، تصور — بتأثير النشوة — أن أنفه طال، فكاد يسد الطريق، أبطأ من خطواته؛ حتى لا يصطدم بالمارة أو العربات، داهمه التوجس، فعوج أنفه بأصابعه؛ ليحقق انتظام المرور، خطر له أن يصرخ، ويغني، ويرقص، ويجري إلى حيث تذهب به قدماه.

عبر الطريق إلى الناحية المقابلة، استبدل البائع شرائط كثيرة حتى هزَّ رأسه بالموافقة، الصوت الأنثوي يتغنَّى بالعلاقة منذ بداياتها، يتعمد المط والتلكؤ والبحة المتحشجة والأنفاس اللاهثة، مالت الرؤوس، وتقاربت الأجساد، وتعالَت الهمسات الصاخبة. قال البائع، وهو يقبِّل الشريط على الوجه الآخر: «أثق أن هذا هو ما تريده.»

ابتسم للتعبيرات والتعليقات؛ التي علَّقت على الدكاكين المجاورة للكاتدرائية بشارع الحبيب بورقيبة، دفع — في زيارته الأخيرة إلى تونس — أربعة دولارات، كي يكتب له البائع أمنية على بطاقة مزيَّنة بالورود، أطال التفكير؛ فيما يتمنَّاها لها، طلب البائع أن يترك العبارة، الأمنية، استقبلته بما اعتاد من الجفاء، فلم يتذكر البطاقة، إلا حينما فتشت في جيوبه، قبل أن يبعث البدلة إلى المغسلة.

نسي حتى ما قديم من أجله إلى بيروت، وهو يجلس في كازينو لبنان، ينصت إلى المغنية الصغيرة، الممتلئة، تردد أغنية فيروز: «باحبك يا لبنان، ...» وثمة آلاف النقاط الضوئية تفتش مساحات السواد فوق الجبل، حرص على تناول ما يميّز الطعام اللبناني: الكبّة والتبولة والفتوش والحمص بالطحينة واللحم بالجبن وورق العنب والمحاشي والمتبلات، حتى الحلويات — على الرغم من الضغط والسكر — أكل البقلاوة والقطائف وعيش السراية والعثمانية وزنود الست.

عانى كثرة الحواجز على مفارق الطرق، مدرعات، وسيارات جيب، وبزات عسكرية ذات ألوان متباينة، وأصوات الميكروفونات يتعالى منها التعليمات والأوامر، والشعارات مكتوبة بالبويات الملونة، والطباشير تملأ الحوائط، وأسفلت الطريق، وأبواب الدكاكين المغلقة، وسواتر البنايات المتهدمة والمصقات على الجدران، ولافتات القماش تصل بين أعمدة النور في تقاطعات الشوارع، تؤيد وتستنكر وتحيي وتبايع وتبشّر بالخلاص، وصور الزعماء والقادة معلّقة على النوافذ والمشربيات، والأعلام التي تنتمي إلى تنظيمات يسمع عنها، أو لا يعرفها، أذهله الدمار في وسط بيروت؛ سوق الطويلة، وباب إدريس، وساحة البرج، البنايات المتهدمة، وفجوات الصواريخ، وثقوب الرصاص الواضحة على الجدران المتبقية.

أشار سائق التاكسي إلى النافذة التي كان يقف وراءها، وبيده بندقية يصعد بها إلى من يحدّده التلسكوب، لم يعد القتل على الهوية، ولا بعد إلقاء الأسئلة؛ لمن يجري بسرعة، أو يمشي ببطء، أو يتلفّت، يصوّب عليه دون أن يتلقّى أمراً، أو يعطي إنذاراً. استعاد التسمية: «قبرص؟»

أعاد فاروق معوض القول: «قبرص ... هي غير قبرص..»

ثم بلهجة محرّضة: «بها نبع ماء ساخن يتدفق من الصخر، لو أنك أكثر من الغطس فيها؛ فالنتيجة مؤكدة.»

أشفق من الارتفاع الهائل الذي بلغته السيارة على الطريق الصاعدة، بدا الوادي في أسفل مفروشاً بالخضرة، تنتهي بالشريط الساحلي، الجبل الصاعد المتعرّج نفسه، ارتقته السيارة في قريات، وإن تسربل الجبل العماني بالصخور والوحشة، واختلطت — في الوادي — مساحات الصخور والرمال وبقع الخضرة القليلة.

المياه تجري ساخنة إلى الدائرة الحجرية المتصلة بالبحر، تبلغ مستوى الركبة، تظل السخونة على ارتفاعها إلى خارج الدائرة، عشرات الأمطار في اختلاطها بموج البحر.

– من أين تأتي هذه العين؟

– من الصخور، البداية لا يعرفها أحدٌ، لكنها تنبثق من الصخور.

دلى قدميه في مياه الدائرة الحجرية، لسعته السخونة، فرفعها، تشجّع حينما أبقت الفتاة قدمها في الماء، دلى قدميه، وتحمل الحرارة. تنبّه على صيحة أربكته، كان الشاب ذو الأفرول الكاكي يتفحصه بنظرة مرتابة: «ماذا تريد؟»

أدرك أنه أكثر من التلفت؛ فيما يثير التأمل والأسئلة، غالب إحساسه بالارتباك: «أنا أتنزّه».

وهو يلكزه بكعب البندقية في جنبه: «تتنزّه في منطقة عسكرية؟!»

المناطق متشابهة؛ الحواجز والمتاريس واللافتات والشعارات والميليشيات العسكرية. تعمّد ألا يواجهه بعينه، يخشى أن يلح التخاذل في نظرته: «لم أكن أعرف». لم يعد قادرًا على الفهم، ولا الاستيعاب، ولا التصرف، ثمة شيء ينقصه، وإن لم يدركه على وجه التحديد، عانى ما يشبه شلل الإرادة، اختلطت الرؤى، والخيالات، والأصوات التي يغيب مصدرها.

أعاد الشاب لكرهه بكعب البندقية، تأوّه وسقط، واصل الشاب دفعه وضربه وهو يزحف، اعتمد على راحتيه وركبتيه حتى توقفت الضربات، وانحسر ظل الشاب، زمّ شفّتيه، وإن ظلّ على تأله، وهو يرقب الشاب مبتعدًا في وقفته المنعزلة وسط الميدان الصغير. كان ذهنه قد خلا من كل شيء.

في انتظار ما لا يأتي

أضع قدمي على سلم القطار؛ حتى يتوقف تمامًا، أعبّر ميدان محطة دمنهور إلى شارع الصاغة، أجاوز محطة الأوتوبيسات وفندق ذهب وكازينو الشريف وتقاطع شارع القلعة ومسجد الزرقا وفندق الربيع ومسجد الزواوي، أمضي في الشارع إلى نهايته، أميل — ناحية اليسار — في شارع المحكمة، على جانبيه أسوار حجرية وأبواب معظمها مغلق، وعربات نقل مصطفةً جانب الأرصفة.

يطالعني الكوبري ومسجد أبو الريش، أستعيد ملامح جدتي؛ القامة الضئيلة، العينان الخضراوان، بقايا الشعر الأصفر المتداخلة مع البياض ... تتناثر وتتلاصق تحت الكوبري، وبالقرب منه، عربات ميكروباس يجلس داخلها رجال ونساء، وتدور أمامها أسئلة وأجوبة ومناقشات ونداءات؛ أدرك أن الميدان نقطة تجمع لسيارات الميكروباس في انطلاقها، وعودتها من المدن والقرى القريبة.

تبطئ خطواتي، وأنا أجعل سور الملح الهائل إلى اليسار، وإلى اليمين، البيوت المتلاصقة ذات الطابق الواحد، أو الطابقين، تفصل بينها شوارع ترابية ضيقة، يغيب الالتواء نهايتها، مدخنة وابور النور في نهاية الشارع، إلى يسارها الشارع المفضي إلى التربة والطريق الزراعية.

قبل أن أبلغ الوابور، أنحني إلى الشارع الجانبي الضيق، البيوت الطينية، النوافذ الواطئة، روائح الطعام المنبعثة من الأفران والكوانين، البهائم العائدة من الغيطان، كومات القش والحطب المتدلية من فوق الأسطح، التراب المختلط بالروث. أصعد السلالم الحجرية الضيقة، أخلف ثلاثة طوابق، ثم أدفع باب السطح الخشبي الموارب، أتخيل جلسة جدتي أمام الفرن، تدسُّ في الشاروقة صينية البطاطس وقطع البطاطا وأرغفة الخبز.

كانت تدفع باليد الطويلة للمطرحة، تستعيد الأرغفة بعد نضجها، ثم تلقم الحنية أرغفة أخرى. قالت وهي تستعيد المطرحة من داخل الحنية: «ألم يكلمك أبوك في سفري إلى الإسكندرية؟»

كنت أتوقّع هذه اللحظة، أنتظرها، أستعيد السؤال الذي حفظته: «أبي يسأل، متى تأتين؟»

تشيخ بظهر يدها، وتتجه بنظرتها إلى الفرن.

أعيد السؤال: «متى تأتين إلى الإسكندرية؟»

ألفت جوابها: «إذا حان أجلي فلن أموت إلا في هذا البيت.»

— لم يعد — هنا — غيرك، كلنا سافرنا.

تعدّ على أصابعها: «أبوك للعمل ... وأنت وأختك للدراسة.»

وتهز رأسها: «لا سبب يدعوني للسفر.»

تنهض من موضعها، تتحرك خطوات إلى الباب، ثم تميل ناحية سور السطح، تطيل

النظر — من وراء السور — إلى مدخنة الملح الواقعة أمامها، خلف الأسوار العالية، كأنها

تعيد التعرف إليها، أو تهتمّ بالتحدث إليها: «لا أتصوّر نفسي بعيدة عن هذا البيت.»

قلت: «أبي زهق من إصرارك على الرفض.»

شردت بنظراتها؛ فيما لم أتبيّنه: «إذا وعدني أبوك بإعادتي في مولد سيدي أبو حصيرة،

فسأذهب معكم.»

— الإسكندرية فيها أولياء كثيرون!

— عليهم رضوان الله، لكنني من محاسيب سيدي أبو حصيرة.

— سيدي أبو الريش قريب من البيت.

أكدت موافقتها بهزة رأس: سره باتع.

واتجهت ناحية الأفق: «جداك رأني مع أبي في مولد أبو حصيرة؛ فخطبني في الأسبوع

نفسه.»

حدّثتني عن مشوارها كلّ عام بمفردها، أو بمن تختاره من نساء أبو الريش إلى

دمتيو القريبة من دمنهور. عرفت الطريق إلى المولد بعد رحيل زوجها، جدّي، لم يكن يأذن

لها بالخروج من البيت في أيامه الأخيرة، ترك السوق والبيع والشراء، ولزم البيت، لم يكن

يغادره إلا إلى مسجد أبو الريش القريب، كان يطوي المصحف عند رفع الأذان، يؤدّيها —

بمفرده، أو في الجامع — ويعود إلى قراءة القرآن، تهمس: «ذهب كطيف.»

ألفت الحضرة وحلقات الذكر ورواة السيرة والمدّاحين وأكشاك الختان وخيام الصوفية وذبائح النذور وولائم الطعام والبيارق والأعلام والمناويل الملونة والسيوف الخشبية والسبح الكبيرة والطبول والدفوف وجماعة أبو الغيط والميكروفونات والتراتيل والتكبيرات والتسابيح والعمائم الهائلة وتهليلات المريدين وال دراويش والمجاذيب، ونداءات النصفه والمدد، والآهات، والأنفاس، والقلوب المفعمة بالوجد والأشواق. ما طالعها — آخر مرة — في المولد يختلف عما ألفتَه؛ آلاف الناس ذوي السحن الغريبة، يأتون إلى المولد في أوتوبيسات، يرتدون البدل والبنطلونات والسويترات، يتكلمون لغة لا تعرفها، ويصلُّون بما لا تفهمه، ويرقصون، ويسكرون، وشى صوتها بالأسى: «رفض العسكري دخولي إلى منطقة الضريح». كوبري أبو الريش الذي تبدأ به منطقة حظر دخول السيارات من معالم حي أبو الريش الذي يقع فيه بيت جدي، هو البيت الذي أمضت فيه حياتها، تذهب في ديسمبر من كل عام إلى دمتيو، لا تصادفها كلمات منع من أي نوع.

أبو حصيرة، مبنًى قديم في أعلى هضبة ترابية تقارب المترين، إلى جواره عدة مقابر، تستقبل الساحة المواجهة للضريح آلاف اليهود، ويتحوّل ليل «دمتيو» إلى صخبٍ قوامه الشموع المضاءة والأغاني والصرخات والبكاء والنحيب والرقص وتناول الطعام والشراب. قلت: «ألا تزورين الضريح الآن؟»

حملت صوتها نبرة وهن: «لم أعد أستطيع المشي كل تلك المسافة، الحنطور ينقلني إلى قرب الضريح.» استعدت مرافقتي لأبي قبل ثلاثة أشهر، هبطنا ميدان المحطة، سرنا في شارع الصاغة، ثم إلى شارع المحكمة العريض المزدهم بالسيارات والباعة والمارة. أسرع خطوات أبي حين طالعنا الميدان المفضي إلى أبو الريش، بدا وابلور المياه في نهاية الشارع، والبيوت التي تعاني القدم والتهالك إلى اليمين، تفرعات الأزقة الترابية تعلو على الشارع الرئيس بطبقات الروث المدكوكة، وإلى اليسار من السور العالي لمحلج القطن، لا تبين منه سوى المدخنة الحجرية المستديرة، أشبه بمئذنة.

رنت إلينا جدتي — في وقفتهما على بسطة السلم — بالفرحة والتوجُّس.

قال أبي في هيئة من اتخذ قراراً: «جئنا لنصحبك إلى الإسكندرية.»

تبدّل وجه جدتي بحزنٍ لم يسبق أن رأيته في ملامحها، نفرت العروق في رقبتها، ودمعت عيناها، وارتعش أنفها، كأنها تواجه ما لا تملك مغالبتها.

ظلت جدتي ساكنة في جلستها إلى جانب نافذة القطار، أصرَّ أبي أن يصحبها إلى الإسكندرية، تجاهل الدمع في عينيها، وحزنها البادي، وشرودها فيما لا نراه.

أشارت — بإصبع مرتعشة — إلى ملابس قليلة، وضعها أبي في الحقيبة، كانت تضع حاجياتها في صندوق خشبي، تحيط به سيور نحاسية منقوشة، تأخذ منه ما تريده، تدير المفتاح في القفل، تتأكد من إغلاقه.

أطل بها أبي على زحام شارع الميدان.

قال: «لا اختلاف في الحياة هنا عن الحياة في أبو الريش.»

الشارع — في أسفل — يشغي بالبضائع خارج الدكاكين: طبالي السمك وتعاليق اللحم وأقفاص الخضر والفاكهة وأجولة الأرز والملح ورسات الصابون، وكراسي البلاج، والزحام، والنداءات، والفصا، وعربات اليد، والسيارات، وكومات الزباله. وزَّعت جدتي نظرات توجَّس بين أبي وأمي، تحدَّث أبي عن قرار هدم بيت أبو الريش، هو قرار مجلس المدينة، ولا بد من تنفيذه؛ حدجته بنظرة تخلو من المعنى، وظلَّت ساكته.

خامس يوم، قالت جدتي، وهي تضع يدها على صدرها: «أشعر بتقطيع سكين!» لم تكن جدتي تشكو ألمًا، ربما همست عن وخزٍ خفيفٍ في جانب صدرها، هي بصحة جيدة ما دامت تتحرك، وتكنس الحجرات، وتربي الكتاكيت، وترغط الإوز، وتطبخ، وتجلس أمام الفرن، إذا ألمَّ بها صداع؛ فإنها تَلْفُ حول رأسها عصا من القماش، تعدها مرات متوالية، حتى تضغط على الرأس، وتهب الشفاء، لا تجرع الأدوية، ولا تعرفها. همَّت بالاستطراء، لكنَّ الكلمات خذلتها، بدت أشبه بالغممة، ترنَّحت في وقفها، كأنها تعاني دوارًا، ثم سقطت على الأرض؛ عادت جدتي إلى بيتها بالقرب من مقام سيدي أبو الريش.

تقاربت زياراتي لها. طالت جلساتها، حدَّثتها عن خطوات أبي لتكنيس البيت، فلا يسقط، كنت أكنم إشفاعي عليها من الحياة في البيت ذي الطوابق الثلاثة، وكانت تغلق شقة الطابق الثالث ومعظم حجرات الطابق الثاني، وتكتفي بكنس الحجرات الباقية، والسلم، إلى الباب الخارجي. أتابعها وهي تجلس أمام الفرن، وتطبخ، ثم أكشف — بالفضول — أغطية الأواني، لأرى ما بداخلها، تنشر جدتي الغسيل، وتتذكر، وتروي الحكايات، في جعبتها الكثير من الوقائع والأحداث والأسرار، تعاود النظر ناحية المحلج، اتساع مساحة الشارع، تصعَّب رؤية ما خلف السور الحجري العالي: مداخن، وبنيات متباعدة، لا تشي بكل ما في الداخل.

قامت جدتي، وهي تنفض ذرات الدقيق والرَّدة من ثوبها: «هل تريد زيارة خالتك نبوية؟»

في انتظار ما لا يأتي

هزرت رأسي بإيماءة موافقة.

خالتي نبوية هي أخت جدتي، أعرف أنه كان ينبغي أن أصفها بالجدة، مثل جدتي تمامًا، لكن ما لقننه منذ طفولتي هو: الخالة، هي خالتي على الرغم من أنها تكبر جدتي بضع سنوات.

ما كادت تخطو من عتبة باب البيت، ترتدي «الملس» بتكسراته وضخامته؛ حتى اتجه الأولاد ناحيتها، يمدُّون أيديهم بالسلام، يلمسون ثوبها، ربما لتأكيد المعرفة، يسألونها لمجرد أن تبادلهن الكلام، يحبونها ... هذه هي صورة التفافهم حولها، تعلق البسمة شفيتها، وهي تمسّد على رءوسهم، أو، وهي تدفعهم من حولها برفق.

سرتُ وراءها، أتأمل خطواتها البطيئة، وهي تتجه، بعينيها ويديها، إلى كل ما حولها، مالت إلى اليسار في حارة شمة، تسلّم، وتسلّ، وتجبب، وتشير إلى النوافذ المفتوحة والمغلقة، وتحاذر خطواتها في الأرض المغطاة بالتراب وروث البهائم، البيوت الواطئة من الطوب الأحمر، على الجانبين، الشرفات والنوافذ التي امتدت أمامها حبال الغسيل، النسوة على العتبات، يبادرن جدتي بالتحية، ويتكلّمن، وينقن الأرز، ويقشرن البصل، روائح البخور والتوابل وزفارة السمك وأنواع الطعام.

هتفت: «يا طاهر» — اسم أكبر أبناء خالتي نبوية — وهي تدفع الباب، طالعنا امتزاج الظلمة الشاحبة ورائحة القدم والعطن. الأرضية مكسوة بالتراب والروث والمتساقط من بقايا الطعام واللبن، أتبيّن كومات الحطب إلى جانب الدرجات الحجرية الصاعدة إلى أعلى البيت. تكوّمت — في الناحية المقابلة — جرار وقذور وبلاليص وأقفاص وأجولة مربوطة وقُفّف وأوعية مكسورة، الزناويل معلقة في الأوتاد، وثمة رائحة صنانة تترامى من مرحاض قريب.

استيقظت جدتي — كعادتها — عند صلاة الفجر، انشغلت بتنظيف البيت وإعداد الطعام، وتفقد عشة الدجاج وبنيات الحمام، قلت — وأنا أرنو إليها — متأملًا: «من أين خضرة عينيك؟»

وهي تخفض نظرها: «كانت عينا أبي خضراوين.»

رنت — بعفوية — إلى صورة جدّي على الجدار، يرتدي قفطانًا مزهرًا، وجُبّة مقلّمة، وحزامًا أخضر، وطربوشًا، وحذاءً أجليسيه برقبة، وفي يده منشّة، إلى جوار الصورة، وفي الجدار المقابل، لوحات كُتِبَ عليها آيات من القرآن، وصورة للكعبة، وصورة للمسجد الأقصى، وثمة أصوات أولاد — يلعبون بالكرة — تترامى إلى النافذة الصغيرة المفتوحة.

ظللتُ مسترخياً على سريها في حجرة الطابق الأرضي، أهملتُ طلبتي أن أنام في حجرة أخرى: «إنه صغير، قد لا يسعنا.»

وعلا صوتها بالغضب: «ترفض النوم في حضن جدتك؟»

ثم في لهجة محرّضة: «كان أبوك يقيم في هذه الحجرة قبل أن يترك البيت.»
لم أستعد ما قالته عند قدومي، ولم أفكر؛ إن كان ما قالته هو ما تريده بالفعل، تابعتها، وهي تكنس، وتمسح، وتبدّل مواضع الأشياء، تتمم بأدعية لا أتبين مفرداتها، تلاغيني بأسئلتها ودعاباتها دون أن تجالسني، يعلو صوتها ويخفت بقدر ابتعادها عن حجرة الطابق الأرضي، واقتربها من الحجرة أو من باب البيت.

ألفتُ الحياة في طفولة جدتي، أتصور الأمكنة والملاحم والقسمات والتصرفات، دنيا المناقب والبركات والمكاشفات والخوارق والمعجزات، حكايات السحر والجان والمردة والغيلان، العوالم المملوءة بالأطيايف والقرناء والأشباح والمخلوقات الغريبة.

تحدثت — بصعوبة — عن جدي، وأخوالي، الذين فارقوا البيت بانتقالهم مع زوجاتهم، أو بال موت. ظلّت في البيت — ذي الطوابق الثلاثة — بمفردها، اكتفت بحجرة الطابق الأرضي، المطلة نحو الطريق على السطح؛ لإعداد الطعام، وتربية الطير، ونشر الغسيل، تفتح الحجرات الأخرى، وتعدّها، إن قدمت أسر الأبناء من خارج دمنهور. روت عن تسلّل لصٍّ إلى داخل البيت، عرف أنها تسكن البيت بمفردها، قفز من نافذة الدور الأرضي المفتوحة، تبيّنته في وقتها على البسطة العلوية، أرادت أن تصرخ، فاختنق الصوت في حلقها، انحنت على الأرض، قبضت حفنة من التراب، وقذفت بها وجهه، صرخ الرجل لغياب بصره، وعانى التخبُّط، وهو يدفع باب البيت إلى الشارع.

أدركت جدتي أن أولياء الله أنقذوها مما كاد يهدد حياتها.

تنبّهت لنصيحتها: «ضع ظهر يدك على فمك، وأنت تتثاءب؛ حتى لا يقفز الشيطان إلى فمك.»، أعادت جدتي قولها: «قد لا أزور ضريح سيدي أبو حصيرة.» ظللت صامتاً.

فردّت خرقة تمسح بها التراب:

— «يشاركننا الاحتفال بمولده ناسٌ لا أعرفهم، تنقلهم إلى الضريح سيارات كبيرة، ويفعلون مساحر.» ثم، وهي تلمّ الخرقة في يدها: «لن أتردّد على الضريح، ولا أشارك في المولد؛ حتى تقتصر المشاركة على ناسه.»

مضت إلى الناحية الأخرى من السطح، ترنو إلى أعلى البنايات، وتباعد السحب في انفراجات تنفذ منها أشعة الشمس، والأفق البعيد. تضع كفّها على حاجبيها، كأنها تتجّه بنظراتها إلى موضع تراه، ولا أراه.

في انتظار ما لا يأتي

تمت بآيات قرآنية، وأدعية، وكلمات غير مترابطة.
كُورِت الخرقَة في قبضتها، ومالت إلى الباب.
تبعثُها، وهي تهبط درجات السُّلم، وصوتها المتعب يحذّرني من السُّلّمات المكسورة.

ارتحال السكون

طرف الخيط يصعب التقاطه، وصل النتائج بأسبابها ربما ساعد على توضيح ما غمض، أتابعك وأنتِ تميلين من ناحية شارع سيدي داود إلى شارع الحجاري، لا أحاول اجتذابك إلى حديثٍ بسؤالٍ، أو ملاحظة، أكتفي بهزة الرأس، أظهر التأثر لرؤيتكِ؛ وأنتِ تفتحين الباب الزجاجي، وتعيدين ترتيب البضائع على الأرفف وفي الفاترينا، وتكنسين داخل الدكان وخارجه، ثم تظهر حلوى من كل الأنواع، علب الشوكولاتة والبسكويت، وأقراص المشبك والكعك والمعمولة، ومكعبات الزبدة والكيك والجاتوه، والمرطبات والمياه الغازية، والدولاب الزجاجي على أرففه قطع التورتي بتكوينات مختلفة، وصينية الهريسة تعلو النيران الهادئة. لم يعد في حياتي قبل ولا بعد، خلت مساحة الصورة إلا منك، لم أعد أرى في الدنيا فتاة أخرى، أضع اهتمامي — بالساعات — في وقفتي وراء النافذة، أتابع كل ما تفعلين، ألحظ حتى التصرفات العفوية، أخمن الكلمات التي ترافقها ابتسامة وجهك، في بيع الحلوى للزبائن، أرهف سمعي كأني أريد التقاط الهمسات المتبادلة بينك وبين مدحت شاهين، أهمل حتى موارد ضلفتي النافذة حينما تقتحم الشمس الشقة، بعد أن تتجه إلى الناحية المقابلة، ذلك ما كنت أحرص عليه، أو أغلق النافذة تمامًا، منذ الظهر إلى ما بعد المغرب.

أذكر متى ظهر مدحت شاهين في حياتك، في حياتنا، هزَّ المفتاح في يده؛ وهو يتجه ناحية دكان أدوات الصيد الملاصق لدكان الحلواني الذي تعملين فيه، القامة طويلة، والبشرة نحاسية، والعينان تشيان بنظرة مقتحمة. تابعت انشغاله بترتيب كومات الغزل والحبال وقطع الفلين والإسفننج وبراميل القطران والبوص والسنارات والسكاكين والخطافات وطعم السمك.

لاحظت من وقفتي في النافذة المطلة على ناصية شارع الحجاري أنه قدَّم نفسه في اللحظة الأولى، كأنه قديم للتعرف إليك، تحوَّلت هزة الرأس المحيية في الأيام التالية إلى

مناقشات، وأخذ وردّ وملاحظات، اعتدت وقوفه بعيداً عن دكان أدوات الصيد، ووقوفه أمام دكانك، بدا مثل شيطان برز في حياتنا ليفسدها، يشغلك حتى عن نفسك، ويقتلني بالتوتر.

حين يقرر المرء أن يحب فهو يبحث عن يبادلّه العاطفة، تصوّرت ظهوره في حياتك، بداية علاقة جميلة تأنسني إليها، ألمح التماح عينيك البُنيتين، وارتعاشة أنفك الدقيق، والحمرة التي تغطي وجنتيك. تابعت لهفتك وأنت تنظرين إلى دكان الصيد المغلق، التوتر ينطق في ملامحك وتصرفاتك، لمّا عاد في اليوم السابع وعلى شفثيه ابتسامة فقدت المعنى، حدست أن غيابه ليعرف ما في نفسك، ليزيد من شوقك إلى لقائه وإيلامك.

كنت أضيق — أحياناً — بسكوتك عن تصرفاته، وقبولك ما لا ينبغي أن تقبله، أتململ في وقفتي وراء النافذة لرؤية تطور العلاقة بغير ما كنت أتوقعه، يناوشني الفضول والرغبة في المتابعة، يداخلني شعور بالضيق، وربما الغضب؛ لصمتك أمام ما يقوله، أو يفعله، تؤلّني نظرة الرضا في عينيك، تتصاعد في أعماقي موجات غضب من تصرفاته في مواجهة عجزك الواضح، تثيرني قدرته السيطرة على حياتك؛ الثياب، ومفردات الكلام، وطريقة المشي، والجلوس، حتى ما تضيفينه إلى جسدك أو تختزليه من كيلوجرامات، كأنه أخطبوط يقيد تصرفاتك، يمنعك من الحركة، يعتصر حياتك، تواجهين الموت لو أنك حاولت المقاومة.

فقدت صبري تجاهك، أعاني ما يفعله، أرتجف للتصرف الذي يمليه عليك، كأني أنا المقصود بنصائحه وملاحظاته وأوامره، حتى الثياب التي أحس أنه دفعك إلى ارتدائها، تمنيت لو أنك رفضت نصيحته.

بدا الأمر شخصياً، أحسست أنه يخصني، وأنت تخذلينني بصمتك عن تصرفاته، في ذات لحظة شعرت بميل إلى الغثيان، أرفض مجرد الإشفاق على ما بدت عليه العلاقة بينك وبينه، أفسد — بتصرفاته — صورتك الجميلة، غابت النظرة الطفولية الصافية، حلّ بدلاً منها توتر، ينعكس في ارتجاف أنفك وعينيك، والارتباك الذي يسم تصرفاتك، تخفضين رأسك أمام عباراته القاسية — لا بد أن تكون قاسية — وتكوّر قبضة يده بما يعني التهديد، أحس مشاعرك وما تعانين، من تعبيرات يديك، وملامح وجهك، والدموع التي تمسحيتها بكم البلوزة البيضاء. لم تعد متابعتي فضولاً، ولا حب استطلاع، شغلني ما يحدث، أضيق بتصرفاته، وأحزن لصمتك عما يفعل، تشغلني توقّعات أخشاهها، ولا تفتنين إليها، وإن اكتفيت بالوقوف وراء النافذة، وتأمّل ما يجري في الناحية المقابلة.

همس في أذنك بما لم أتبيّنه، انعكست كلماته ضيقًا في ملامحك، وأشحت بيدك، عاد إلى أذنك بفمه، حدست أنه يهون عليك، ويعتذر عمّا فعل، قال ما استدعيت له ابتسامة، أدركت أنها لإنهاء الموقف، أو للمجاملة، عرفت أنه لم تعد بينكما مساحة ودّ، تداخلت في نفسي مشاعر غامضة، لم أدرك إن كنت قد حزنت أم سررت لها.

أزمنت أن أفعل شيئًا، وإن لم أدرك — على وجه التحديد — ما يمكن أن أفعله، أقاوم التردّد، وأطرده، أعبّر المسافة بين البيت والدكان، وأواجهه بما أكتمه في نفسي، وأتقبّل النتائج، لكنني أعاني من فقدان الرغبة في أثناء مواجهته، أو أنني كنت أخشى المواجهة، ما أراه من تصرفاته، يتسلل إلى داخلي بأسئلة قاسية، ولعلّه الخوف.

كنت دائم التخيّل لمواجهتي له، أحاصره في زاوية الدكان، أحذّره من تصرفاته القاسية مع أميرتي الجميلة، أصوّب إليه من اللكمات ما يجبره على التدخل.

ناقشت الأمر بيني وبين نفسي: ماذا لو أنني وقفت أمامك، وهمست شفّتي بالتحذير، فواجهت الصدود! هل أظل في وقفتي؟ أو أتمنى الموت؟ هل فطنت إلى ارتباكك وأنت تطالعيني بملامح الأميرة في وقفتك أمام باب الشقة؟ تداخلت في نفسي مشاعر كثيرة، غامضة، ما أذكره أنني أخفقت في استدعاء الكلمات؛ التي أردّ بها على قولك الهامس: أستأذنك في التليفون.

اتسم ردّ الفعل في تصرفي بعفوية لم أتدبّرّها، غمغت بعبارة ترحيب لا أذكرها، أفسحت لك الطريق، تأملت الشقة بتوقع نظراتك لها، الصالة الواسعة، تتوسطها طاولة خشبية صغيرة، مغطاة بمفرش من القطيفة الحمراء، حولها أربعة كراسٍ، تحتها فروة خروف، فُرشت كسجادة، اللوحات على الجدران للكعبة، وصور فوتوغرافية، ولوحات تآكلت حوافها، أو شحبت ألوانها بمرور الوقت، الأليكان المتقابلان على الحائط المكتب الخشبي الصغير، فوقه أوراق تصدير واستيراد وكتب في المعاملات التجارية، النجفة الخالية إلا من لمبة واحدة، الكنبّة الاستانبولي، المروحة المتدلية من السقف تصدر طنينًا خافتًا.

غالبت التردد لكي أنبّهك إلى خطورة ما يفعله مدحت شاهين: مدحت شاهين، قريبك؟ التمتعت عينك البُنيتان بتساؤلٍ: «لا، هو المسئول عن دكان الصيد».

ثم، في نبرة التساؤل: لماذا؟

— لا أرتاح له.

وأنت تربتين صدرك: أراه إنسانًا لطيفًا.

— هذا رأيك ... لي رأي آخر.

واتجهتُ بنظري إلى الناحية المقابلة.

أدركت أنك تهملين تصرفاته القاسية لأنك تخشين غيابه، فقده، لا يشغلك سوى أن يظل في حياتك، يأتي إلى دكانه كل صباح، يقضي فيه النهار، يحدثك في وقفته على الحد الفاصل، أو أمام دكان الحلوى، أجد انعكاسات كلماته على ملامحك بما يسهل فهمه. ألزمت نفسي أن أظل هادئاً، وأترك الأحداث تمضي كما هي، هذه إرادتك، لا أ تدخل على أي نحو.

لم أعد أتردد على الدائرة الجمركية إلا لأوقّع في الساعة، ها أنا ذا أحرص على المجيء إلى عملي، ثم أعود، ألزم موضعي وراء النافذة، أرقب ما يحدث في الدكانين المتلاصقين، يبدأ يومي حينما تُقبلين من ناحية الموازيني أو رأس التين، تضعين المفتاح في الباب الزجاجي، تتأكدين من ترتيب الحلوى، أو تعيدين ترتيبها، أهملت ملابسني والقراءة ومشاهدة التليفزيون ونوم القيلولة، حتى الطعام أتناوله في وقفتي وراء النافذة، لا تتحوّل عيناى عن الموضوع الذي اجتذب اهتمامي، إذا أغلقتما الدكانين ... أنسحب إلى الداخل، أرتمي — بالتعب — على السرير، أغيب في النوم، أصحو على رنين جرس الباب، أضع الجريدة على الطاولة الصغيرة، لا أحاول حتى مطالعة عناوينها، أمضي إلى الدائرة الجمركية، وأعود، ألزم وقفتي وراء النافذة.

أثارت الحقيبة الجلدية في يدك دهشتي، أشرت إليه وأنتِ تتكلمين، خُمّنت أن ما بالحقيبة يخصّكما، لم تحاولي فتحها، فأحاول تبين ما فيها، حين أغلقتما الدكانين، ورفع الحقيبة على كتفه، وسرّتما معاً، انداحت في داخلي مشاعر الضيق، أظن أنه لم يكن مجرد ضيق، حدثت أنه يرافقك إلى مكان لا أعرفه، وإن كنت لا أحب أن تذهبي إليه، تابعتكما — في رمادية الغروب — تمضيان إلى نهاية الحجازي.

كانت الظلال قد تقلّصت، وانسحبت بقايا الشمس خلف البيوت وأعلى الجدران، لم تعد إلا ذؤابات أميل إلى الحمرة. تكرّر ما حدث في الأيام التالية، يدفعني التوتر إلى خارج البيت، تتابعكما عيناى حتى تغيبا في انحناء الطريق إلى شارع رأس التين. أترك النافذة مفتوحة، أهبط درجات السلم، أتجه ناحية البحر، تلازمني أفكار مختلطة ومتشابكة، لا حصر لها، تتأمل نظراتي ما لا أراه، أو أتبيّنه، التفصيلات الصغيرة تلحّ على ذاكرتي؛ الكلمات الهامسة والزاعقة، تكوّر قبضة اليد، توبيخه المتكرر لك من دون مقدّماتٍ، وبلا سببٍ.

أدركت أن مراقبة ما يجري من وراء النافذة خطأ، ينبغي التنبّه إليه، أزمعت أن أبادره بتصرفات العدا، وأدفعه إلى ترك دكان الصيد، والحي كله، تحاصره المضايقات، فيذهب

بلا عودة، هو غريب عن بحري، وإن لم أعرف إن كان من الإسكندرية أم من خارجها، لا أذكر أنني التقيت به في جامع ولا شارع ولا مقهى، بدت سحنته غريبة حين رأيته — أمام الدكان — للمرة الأولى. في غبشة الصباح الباكر، عبرت مسافة الطريق بين البيت ودكان الصيد، دلقت الماء الوسخ على بلاط الرصيف، أمام الدكان، صبغت بابه بالشحم وبويا الزيت وما شوَّهه، كتبت على الجدار عبارات التهديد والشتم، دسست في أسفل زيق الباب عملاً؛ يذهل الشاب عن نفسه، تغيبين عن عينيه وذاكرته وعن حياته.

ظلت علاقتكما — في الأيام التالية — على حالها، لم تتأثر بما صنعته، قاومت الاستياء حين رأيته يكتفي بتأمُّك، وأنت تكنسين الماء الوسخ، وتزيلين الصبغة من الباب، وتقذفين العمل في فتحة البالوعة، لصق الرصيف.

كان الشارع — وقت الظهر — خاليًا، ودكان الحلوى بلا زبائن، ودكان الصيد مغلقًا بلا سببٍ أعرفه. لم أطل مناقشة ما اعتزمت، اندفعت إلى الناحية المقابلة:

— هل استغنى صاحب الدكان عن مدحت شاهين؟

علا حاجباك الدهشة، وأنت تنفضين يديك من بقايا الفانيليا: ما شأنك؟

— الدكان لم يُغلق منذ فترة طويلة.

أشرت إلى صدرك بأصابع مضمومة: «لا شأن لي.» ورمقتني بنظرة غاضبة: «ولا شأن

لك.»

حاولت أن أتكلم، لكن نظرتك الزاجرة، أعادتني إلى حيث كنت.

«أذهلني ما رأيته.»

كان يدفعك بقبضته في كتفك، وهو يتكلم، وأنت تتراجعين إلى الوراء، وتتألمين، أومأت بعينك إلى الطريق، تنبَّهينه إلى الأعين؛ التي — ربما — تلاحظ ما يفعل، رفعت يديك تحمين وجهك من ضرباته المتوقعة، قاومتَه، حاولت أن تتملَّصي من يديه، تفلتي بجسدك، لكنه جذب شعرك، لفَّه حول يده، خبط رأسك في الحائط، خلت ملامحه من التوقع؛ ما إذا كانت الضربات ستجرحك، أو — ربما — تقتلك، تلقي بك على الأرض، لا يأبه بصراخك، ولا انحسار الفستان عن ساقيك إلى أعلى الفخذين، توقَّعت، تمنَّيت، أن تردِّي ضرباته، لا تهملين جسدك بين يديه، يضربه بآخر قوته، من دون أن يعبأ بتأمُّك وصراخك.

انبثقت من كتفيه أذرع كثيرة، امتدت الأصابع الخمس في كل يد، أحاطت بجسدك كله، لم تترك جزءًا من دون أن تصل إليه الضربات، تحوَّلت إلى دمية يمارس فيها العنف.

تبدّلت المرئيات، تحوّلت إلى أشكالٍ لم أفهمها، وفقدت الملامح معانيها.
لم يكن أمامي وقتٌ؛ حتى لمجرد التفكير فيما يحدث، تصاعد من أعماقي ما غطّى
على قدرتي في التفكير، علا في صدري ما يشبه قرع الطبول.

ينبغي على المرء — في لحظة ما — أن يتخذ قراراً، يتصل بحياته، وحياة من يهتمّونه،
زايلتني القدرة على الوقوف في موضعي وراء النافذة، والاكتفاء بالمتابعة، أزمعت أن أتصرف
حتى يعرف مدحت شاهين أن لك أصدقاء، يقفون إلى جانبك، ويدافعون عنك. هبطت
الدرجات القليلة المفضية إلى الطريق، عبرت الزحام والسيارات والنداءات والصيحات
والعبارات المتسائلة، واجهته بلامح غاضبة.

لم يشغلني رد الفعل، ولا ما إذا كان يستطيع ردّ ضرباتي، لكنني ضربته بكل
الترقّب والمعاناة والغل والغضب والتحدي، لم أتدبّر أين اتجهت ضرباتي، أضرب، وأضرب،
وأضرب، ضربته بآخر قوتي.

حين تنبّه إلى ما فعلت، انتفض مثل عملاق، وواجه ضرباتي بما لم أكن أتوقعه، ولا
قدرة لي على مغالبتها. أهملت التخاذل والتهايي، لم يشغلني حتى الدم الذي انبثق من
جبهتي، ولا الآلام التي صرخت في جسدي كلّهُ، دفس ركبتيه في صدري، توالى صفعاته
وركلاته، من دون أن أقوى على مجرد الرد.

تماوجت ملامحه، واهتزّ الواقفون والمارة والجدران، وأسفلت الطريق والسيارات
والنوافذ والشرفات وأعمدة النور، شعرت بما يشبه الدوار، والميل إلى الإغماء، وأن روحي
أخذت في التلاشي، لكنني تماسكت في وقفتي، وتساندت على إفريز الجدار، حاولت أن
أستجمع قوتي، أرد على ضرباته الموجعة بما وسعني، مجرد أن ألامس رأسه أو وجهه أو
ساقيه.

كنت أدافع عنك، كنت أدافع عن نفسي.

اغتيال

إلى المناضلة الفلسطينية مروة جبر

لكزه الواقف إلى جانبه، وهو يشير بامتداد ذراعه إلى المدينة في أسفل: «أطلق الرصاص على أي شيء يتحرك، ولا تشغلك النتائج.»

وحدجه بنظرة محرّضة: «هذه فرصة ممتازة للتدرب على الجسد الحي.»

سأل في دهشة: «أأقتل؟»

— من تتردد في قتله سيقتلك.

ثم، وهو يهز قبضته: «لا مجال للتردد في مواجهة الموت!»

أسند البندقية على الساتر الرملي، وتأمّل المدينة الواقعة في أسفل الشارع الواسع المسفلت، تتفرع منه شوارع جانبية، البيت إلى اليمين، يفصله عن الساتر ساحة دائرية صغيرة، على ناصيتها بيتٌ من طابقين، الواجهة من الطوب الأبيض، والسقف من القرميد الأحمر، تسلّقت لבלابة حافة النوافذ الخشبية، العالية، وكست الجدران، وتسلّقت نحو السطح.

تحت البيت دكان بقال، يقف أمامه شاب في حوالي الخامسة والعشرين، يرتدي قميصاً طوي كميّه، وبنطلوناً من الجينز. في طرف الرصيف شجرة تين تساقط معظم أوراقها، لم يعد إلا الفروع الجرداء، المتشابكة، يترامى — من بعيد — صوت سريّة إسعاف. معظم النوافذ وأبواب البيوت والدكاكين على جانبي الشارع المواجه مغلقة، أو تطايرت، البنايات مشيدة من الحجارة والطوب الرملي المتداخل بتكويناتٍ من الخشب.

ثلاثة دكاكين فقط ظلّت مفتوحة: البقال، ومخبز، وصيدلية، ومقهى تجاورت في داخله كراسٍ ذات قيعان مجدولة من الخوص، حول طاولات قديمة مختلفة الأحجام،

رؤاده ثلاثة، ثبتت عيونهم — من وراء النافذة الزجاجية المفتوحة — على بقايا البيت المتهدم، وولدان أمسكا بخيط طائفة ورقية، يتابعان ارتفاعها فوق البنايات، وإلى جوار الرصيف كومة زباله، يعبث فيها قط، والسماء ملبدة بالسحب.

ظل المعركة التي دارت — قبل ساعات — بين الجنود والفلسطينيين المسلّحين، امتص حركة الطريق، المارة قليلون، خلت الشوارع، تناثرت آثار المواجهة: دماء متخثرة على الجدران والأرصفة وفوق أسفلت الطريق، طلاقات رصاص فارغة، مَزَق ورقية متطايرة، زجاجات، علب صفيح وكرتون، غيمات التراب — بفعل القصف — غطت واجهات البيوت، كومات الحجارة تناثرت أمامها، تشي بأنها سقطت من فترة قريبة.

لم يشاهد المعركة، وإن تابع تعليقات زملائه، رفض الفلسطيني أن يسلم نفسه، رآه الجنود وهو يقتحم الباب، ويتركه — باللهفة — مفتوحاً، وقف الجنود والبولدوزر أمام البيت ذي الطوابق الثلاثة، علا صوت الميكروفون يدعو السكان إلى إخلائه، انطلق الرصاص من النافذة العلوية، دارت المعركة في دقائق، ثم تهاوت الطوابق الثلاثة، لم تذكر التعليقات إن كان من في المنزل قد فازوا بحياتهم، أم ماتوا بين الأنقاض.

طالت مناقشات الضباط، الأخذ والرد، الأسئلة والأجوبة: «هل من الأجدى فرض حظر التجول؟» حسم القائد الأمر بالقناصة، وتسيير الدوريات، وقفته — وراء الساتر — لإطلاق الرصاص على من يلمح، ولو مجرد سيره أمام البناية، إطلاق الرصاص بلا تردد، اصطياذ من تلتقطه الشبهات سهل، إن أغلقت المدينة أبوابها على الفارين، وظلّت الأبواب مفتوحة، وأطلّ الناس من النوافذ والشرفات، وجلسوا على المقاهي، وأمام الدكاكين، وداخل البيوت. أمر نقله من صحراء النقب إلى مدن الضفة الغربية، فرض توقّعاً طيباً، تصوّر في الحياة بين الناس ما يطرد الملل، يطل — في وقفته — على صحراء ممتدة، اختلطت فيها الرمال ومساحات الخضرة والبنايات الصغيرة المتباعدة والمعسكرات، أربكته نظرات السكان العرب، التقط منها ما لم يستطع تحديده، وإن غاب عنها الود والألفة، لم يكن يستطيع أن يرد النظرات المتطلعة ناحيته، تحقق فيه، تحاصره، حرص على ما ألزمته به الأوامر؛ كن قريباً من القوة لتحتمي بها، يشكّل — داخل المدن — مجموعة مع جنديين أو ثلاثة، يحتفظون بكامل الأسلحة، يقيسون المسافة مع نقاط التفتيش والحواجز والعربات المصفحة والدبابات.

تركت له الأوامر تحديد الهدف، يضغط زناد البندقية على ما يثير الريبة، يقتل قبل أن يستوضح، أو يسأل، أو يتأكد، الأوامر الصريحة تساعد؛ لا تحقق في ملامح من تصوّب

إليه، الشك يكفي للضغط على الزناد، هذا هو الهدف، فأطلق رصاصاتك عليه، لا تتردد ... إذا ترددت في قتل عدوك، فسيبادر هو بقتلك، إما أن تتركه حيًّا، أو تفقد حياتك، ظلَّ إسقاط المسؤولية في القتل الخطأ بلا معنى، قانون الحرب لا يعرف المشاعر الطيبة.

ترامى هدير سيارة، بدت مقدمتها في انحناء الشارع الجانبي، توقفت في موضع محطة الباصات، خلقت عجزًا يرتدي العباءة والعقال والكوفية الفلسطينية، أسند راحته على قبضة العصا، جال بعينه فيما حوله، كأنه يتوقع أحدًا في انتظاره، تأكد من إمساكه بالعصا جيدًا، وعبر الطريق إلى الشارع المقابل.

أحسَّ برغبة في أن يسد بندقيته إلى موضع ما، أحد ما، يضغط على الزناد، لا يرفع إصبعه، أصدر صوتًا من بين شفثيه؛ تك، تك، تك، تظاهر بالضغط على الزناد، ثم أرحى ساعده.

هزَّ رأسه يطرد النوم، فرك عينيه، أغمضهما، وفتحهما، ثم أعاد النظر إلى الواقف بجانبه، وإلى الطريق والبنائيات أمامه.

تحسَّس البندقية وهو يرمق مسلحًا يعبر المسافة بين تقاطعات شارعين، قبل أن يلتقط البندقية من فوق الساتر، كان المسلح قد اختفى.

قرَّب جهاز اللاسلكي من أذنه، يستمع إلى اختلاط المكالمات والملاحظات والأوامر، ربما يكون بينها ما يأمره بفعل شيء، يحدد له الهدف الذي ينبغي أن يصوب إليه رصاص بندقيته.

أغلق الجهاز.

رَكَّز نظرتَه على الجسد الأنثوي، يبين عن قسماته في العباءة السوداء، قَدِمت من شارع جانبي ناحية دكان البقال، خَمَّن من تلويحة يد الشاب أنه ينتظرها.

اطمأن — بنظرة جانبية — إلى زميله خلف الساتر الرملي، قرفص في إغفاءة بين جِوَالين، أسند البندقية على الساتر أمامه، ثَبَّت النظارة المكبَّرة على مدخل الدكان، وقف أمامه الشاب والفتاة، الحاجز الخشبي فوقه رخامة، تحتل معظم مساحة الواجهة، عدا مساحة صغيرة سُدَّت بباب ذي مفصلات، ينفذ منها إلى الداخل.

مَدَّ يده لها بالمصافحة، استبقى يدها في يده، وضغط عليها بكفِّه، لما ربتت صدره بيدها، حدس أنهما يعرفان بعضهما، ما يراه ليس أول لقاءتهما.

تابع إشارة الشاب ناحية البناية المتهدمة، قال كلامًا كثيرًا، أضاف إليه تعبيرات يديه، مرَّ جانب يده على رقبتَه دلالة الموت. أزاحت العباءة عن مقدمة الرأس، فبرزت خصلة من

شعرها، أظهرت التأثر في إسناد ذقنها على قبضة يدها، وإعادة النظر إلى المكان بعينين متأملتين.

رفع الشاب رأسه وذراعيه إلى السماء، وقال ما لم يتبينه، ثم مسح براحتيه على وجهه. قال الشاب ما فطن إلى معناه في تجاه نظرة الفتاة إلى الناحية المقابلة.

التفت — بتلقائية — إلى مصدر ترامي هدير سيارة، مدَّ عنقه، وزوى عينيه، تبين عربة مصفحة، بداخلها ضابط وثلاثة جنود، مالت إلى الشارع الجانبي أسفل الساتر الرملي، واختفت.

قرن الشاب كلماته بإيماءة إلى الدكان: «هل يدعوها إلى الدخول؟»

كان الدكان من الداخل معتمًا، لم يستطع تبين ما إذا كان خاليًا.

تحركت شفتا الشاب، كمن يهمل بالكلام، ثم سكت، لزم صمتًا، واكتفى بالنظر إلى قدميه، نبهته إلى أنه وضع أزرار القميص العلوي في العروة الثانية، اتجه إلى الناحية المقابلة، تأكد من وجود الأضرار في مواضعها، وعاد إليها بابتسامة معتذرة. ظل صامتًا، وإن استحثته على الكلام بنظرة مشجعة.

شوحت يديها، وابتعدت خطوات، لحقها، مدَّ ذراعيه، أعادها إلى وقفها أمام الدكان. أراحته خصلة الشعر المتهدلة على جبينها، وواجهته بنظرة متسائلة، انتفضت لسقوط ورقة يابسة من فوق الشجرة، طفرتها بطرف إصبعها، تأملت نثارها على الأرض، وداست عليه.

خبط جبهته علامة التذكُّر، اتسعت ابتسامتها — رد فعل لما قاله — فتوضَّحت الغمازتان في وجنتيها، والتمعت أسنانها البيضاء، قرَّبت فمها من أذنه، قالت ما أضحكك، حتى ضرب ركبته.

أخفضت عينيهما، فحس أنه قال ما أربكها، أشاحت بوجهها؛ حتى لا يفطن إلى ما قد تعبر عنه عيناها، لو يعرف ماذا يقولان؟ ماذا يقول لها؟ ماذا تقول له؟

التخمين صعب، وإن حرك الشاب يده بما يشي أنه قال ما لديه.

ظلت أصابعها على ظهر يده، كأنها استراحت إلى هذا الوضع، داعبت ظهر كفِّه بظفرها، عاد إلى احتواء أصابع يدها بين راحتته، يضغط عليها بأخر ما عنده، وهي تضحك، وضعت سبَّابتها على شفتيه، دلالة أن يصمت، تظاهر بأنه سيعض إصبعها، احتضن الإصبع، ورفعها إلى شفتيه، وقبلها، تراجع بأعلى كتفيها، وأعادت خصلة الشعر المتهدلة بهبة هواء مفاجئة.

أحسَّ بتوتُّر يتولد داخل نفسه، لا يدرك بواعثه، وتملَّكه إحساس بالمحاصرة، لم يستطع السيطرة على انفعاله، اختلطت المشاعر في داخله، تداخلت، وتشابكت، غاب حتى إحساسه بالزمان والمكان، حاول أن يتجه بنظراته إلى أعلى، فيعود إلى نفسه.

كانت الشمس قد مالَت نحو الغروب، انحسرت عن الأسطح وأعلى البيوت، وتقلَّصت الظلال، تناثرت سحبٌ كثيفة تشي بمطرٍ وشيكٍ، ودارت أوراق الشجرة المتساقطة في دوامة؛ بتأثير الهواء المندفع من تلاقي الشوارع الجانبية.

تأكَّد من وجود رأس الشاب في دائرة التلسكوب.

ضغط على الزناد.

نافذة على ميدان

المصادفة هي التي فتحت الباب السحري، أطلّ من النافذة في الطابق الرابع، نصف الدائرة أمامي يحتضن الميدان ذا النافورة الساكنة. على الناصية قهوة، يلصقها دكان أدوات منزلية، وصالون حلاقة، ومكتبة، الحركة في القهوة إلى بعد الظهر قليلة، الرواد في الداخل يستغرقون — متأثرين — في قراءة الصحف. أتابع حركة الحلاق داخل الصالون، ما يظهر من قامته أسفل الستارة المسدلة، يرفعها بيدٍ، ويزيح باليد الأخرى كناسة الصالون إلى أسفل الرصيف، يضع حمالة الفوط أمام الجدار الخارجي، ينثر نشارة الخشب في الداخل، وفي المساحة المقابلة من الرصيف. وقفة الحلاق تبدو من الباب المفتوح إلى ما تحت الركبتين، يخلو الصالون، فيجلس الرجل بالقرب من الباب، ينادي على جرسون القهوة، يتأمل حركة الميدان، خطواته البطيئة تشي بتقدّم عمره، وإن بهتت ملامحه لبُعد المسافة. كان الوقت ضحّى.

الميدان يخلو من المارة وحركة السيارات، عدا كنّاس جلس مسترخياً في زاوية الرصيف، إلى جانبه عربة حديدية صغيرة، تنبش في القمامة داخلها، ثلاث قطط. لم أفه بكلماتٍ من أي نوع، وارب الباب، فشغلني الفضول لمعرفة ما وراءه ... نظرتُ في المرأة بعد أن جلست على الكرسي المقابل.

كان الصالون أقرب إلى الضيق، الأرضية السيراميك تغطيها نشارة الخشب، أخذ كرسياً الحلاقة معظم المساحة إلى اليمين، أمامهما مرأتان تحت كل واحدة رف زجاجي، فوقه أدوات الحلاقة؛ ماكينة الشعر والمقصات ووعاء الصابون والفرشاة وعلب البودرة وزجاجات الكولونيا، إلى اليسار ثلاثة كراسٍ للانتظار، تعلوها نتيجة حائط باسم الهيئة، حدست أن الرجل أخذها من موظف يتردّد على الصالون. في الركن كومودينو صغير بثلاث أرجل، فوقه دورق مياه معدني، في الركن المقابل، خلف الباب، طاولة مستطيلة، تكوّمت

عليها مجموعة صحف، السقف مرتفع، تتدلى منه نجفة مطفاة اللمبات، وبين السقف وأعلى الباب يد زرقاء التّف حول أصابعها عقد رفيع من الخرز الملون.

بدا الرجل متغيراً عن رؤيتي له من النافذة، شحبت ملامحه في بُعد المسافة بين النافذة والصالون، أميل إلى القصر والامتلاء، تطلُّ من عينيه طيبة، على وجهه حفاوة مرحّبة، اكتفى من شاربه بمربع صغير بين فتحتي الأنف، البالطو الأبيض ينسدل إلى ما تحت الركبتين، والبنطال يغطي القدم، عدا الأصابع في مقدمة الصندل.

– الأستاذ القصبي أثنى على قرار سيادتك بزيادة مدة الإجازات العارضة.

فطنت إلى أن نظرتي المتسائلة لم تخف ما اقتحمني من الدهشة.

أشار بيده إلى فوق: أسيادتك رئيس الهيئة؟

– من هو القصبي؟

– موظف عند سيادتك ... من زبائني.

حذجته بنظرة متفحصة: «هل يكلمك عن الهيئة؟»

وهو يتكلّف ابتسامة: «لا يقول إلا الخير.» ومسدّ صدره براحته: «خادمك زهيري،

معظم موظفي الهيئة زبائني.»

قلت بالفضول: أية إدارة؟

– كل الإدارات.

طقت الفكرة في دماغي، أزمعت تأجيل عرضها حتى لا أثير حذره، وتنشأ الثقة، لو أنني تسرعت، ربما احتمى الرجل بالصمت. استغنيت عن الحلاق الذي كان يتردد على البيت، ربما عرفت من زهيري ما لا أعرفه من أحوال الهيئة، قلت وأنا أتحسّس ذقني بأصابعي: «نسيّت.»

لاحظت أن حفاوته المرحّبة لا تخص أحداً، ولا تستثنني، كأنه ألصقها بوجهه، لا تتبدّل، تكلمت عن ظروف الهيئة، الأسرار يعكسها تعمّد الهمس، فسرتُ انشغال زهيري بالتليفزيون المفتوح، فهو تربة غير مستهلكة.

في تعدّد زياراتي، عرفت أن زهيري لا يبدّل وقفته أمام الكرسي القريب من الباب، لا أحد يعاونه، ربما جلس زائر على الكرسي المجاور، ينتظر دوره.

توالت الأسئلة، أسئلتني، تحاول كشف ما يخفيه الرجل، تخلّى زهيري عن الكناية والإضمار والتلميح، يردف اسم الشخص، بوظيفته وأقواله وتصرفاته، يفرق بين من يعمل للأذى، ومن يطمناه، ومن يكتفي بالفضفضة، تعبيرات الوجه واليدين، طريقة الكلام، علو الصوت وهمسه.

أدركت أنني لم أكن مخطئاً حين طلبت من الرجل أن ينقل لي ما يعرفه، ما يستمع إليه ويشاهده، يروي ما حدث تماماً، ووثق في صحته، لا إضافة، ولا حذف، ولا محاولة للتهويل أو التهوين، أصل الرواية بروايات سابقة، فأعرف أن الصورة صحيحة.

حذرت من أن تقتصر الملاحظات على تعبيرات مائعة، مثل: علمت، قال موظف، ذاعت شائعة، وغيرها من العبارات التي تعاني عدم التثبُّت، يفرق بين الواقعة الصحيحة والشائعة والنكته، ما أريده اسم الموظف، سنه بالتقريب، ماذا يرتدي، عمله، القسم الذي يعمل فيه، إذا كان له زملاء يصحبونه إلى الصالون، ملامحه الظاهرة، هل تبدو عليه الجدة، أم الخفة، أم أنه يكتفي بالبوح؟ مدى اتسام تصرفاته بالعفوية؟ أو أنه يدبّر لشيء يخفيه؟ أهم ما تضمنه كلامه؟ العبارات كلها؟ الخطأ وارد لو أن العبارات اختلطت، فلا أعرف قائلها، أضع توقعاتي، وما يجب أن أفعله لتوقعاتٍ قد تكون غير صحيحة وخاطئة.

أهملت التعرُّف إلى ظروف زهيري الشخصية، إن كان له زوجة وأبناء، وهل يسكن بالقرب من الصالون، أو في حي بعيد، اقتصر كلامه على موظفي الهيئة، ما يلتقطه من ثنايا الحكايات، لا يفلت واقعة ولا عبارة يرى أنها قد تفيدني، لم تفاجئني كلماته المحذرة: «راشد الميهي لا يحمل لك ودّاً».

تابعتُ موظفي الأمن وهم ينقلون النظرات وإشارات الأيدي بين النافذة التي أطل منها وداخل الدكان، لم يبدُ في وقفة زهيري ما يشي بالرفض لما أخرجوا الأسلاك والأجهزة الدقيقة، عانوا حتى اطمأنوا إلى دسّها أسفل مقاعد الصالون.

حين يجلس المرء على كرسي الحلاق، يكون أميل إلى البوح، إلى الفضفضة، يأخذه زهيري في الكلام، يحرضه على رفع الكلفة، وفتح الباب الموارب، يحكي ما كان قد احتفظ به لنفسه.

تركُتُ للسكرتارية تنبيه من أستاذعيم، أو يطلبون لقائي، فيحرصون على حلقة ذقونهم، أو تشذيبها، يقترحون — اختصاراً للوقت — دكان الحلاق المقابل، ما لا يتذكره زهيري يسجله الجهاز الصغير تحت الكرسي، أعرف ما يتناقله الموظفون من الشائعات والوشايات والدسائس.

ضايقتني نظرات التساؤل وعدم الفهم من عملاء الهيئة، أبديت ملاحظة عن التليفون، قال: إنه لا يقتني محمولاً، والصالون بلا تليفون أرضي.

التليفون الأرضي أول ما سعيت إلى وضعه، فلا يضطر للصعود إلى الطابق الثالث، تركت للسكرتارية تدبير الأمر، حتى جاء عمال الهيئة، استبدلوا بالدورق فوق طاولة الركن هاتفاً أرضياً.

أظهر زهيري الفرحة عند زيارتي، وجد في الهاتف إضافة مهمة إلى قيمة الصالون، ناوشني قلق في تصوُّري لزبائن الصالون، ينصتون إلى المكالمات التي قد تفرضها الضرورة، إذا اتصل بي، أو ردَّ على مكالماتي، فإنَّ التنصُّت سيظل قائماً؛ حتى لو خفت الصوت إلى درجة الهمس.

– كيف يتصرف إن لم يغادر الزبائن أماكنهم؟
أهديته جهاز المحمول، لم أدقق في نوع الجهاز ولا استخداماته، ما يهمني أن يبلغني بما يراه أو يسمعه، حدَّدت له الرنات الثلاث، ثم أتلقَّى مكالمته.
ألِفْتُ إمساكه بالمحمول في وقفته على باب الصالون، أو جلوسه في المدخل، يلمح نظرتي من وراء النافذة، يهز المحمول؛ كمن يبلغني بحسن الأداء.
تكررت مكالماته بتكرار تردُّد الموظفين على الصالون، ربما تكلم لمجرد أنه يذكر معلومة نسيها:

– مكالماتك تخرجني!
وحاولتُ بنبرة صوتي تأكيد معنى الكلمات: «اتصل عند الضرورة».
حملت في وجه زهيري، كأنني لا أصدق وقفته على باب المكتب: «ماذا قال للسكرتارية؛ حتى أذنوا له بالدخول؟» ربما حدسوا من تردُّدي على الدكان أن الرجل صار قريباً.
قال لنظرتي الغاضبة: «موضوع يستحق مجيئي».
ثم، وهو يخرج ورقة من جيبه: «يوزَّعون منشورات ضدك».
أزَمَعْتُ الانتظار حتى يبلغني زهيري، في الصالون بما رآه، أو سمعه، ألِفْتُ زياراته، يدفع عم طه الساعي الباب دون أن يقدمه، كما يفعل مع بقية الزوار، أضغط على اللمبة الحمراء، تظل مضاءة حتى يفرغ زهيري من كل ما أتى لروايته، أودع الموظفين ذاكرته، يحفظ أسماءهم ووظائفهم وأحوالهم داخل الهيئة وفي بيوتهم.
قبل أن أترأس اجتماعاً لمجلس الإدارة، يتفحص موظفو الأمن الغرفة جيداً، يتبينون ما وراء اللوحات، يرفعون غطاء التكييف، يفتحون الأدراج، يدسُّون الأيدي أسفل المقاعد وتحت السجادة الشنواه.

تردَّدت في أن أشجع زهيري على مجالسة رواد القهوة القريبة من موظفي الهيئة، يقطع الخطوات القليلة بين الصالون والقهوة، يعود من الداخل بكوب شاي، يرشفه في جلسته على مدخل الصالون. أعرف تخفي موظفين – ساعات طويلة – داخل القهوة، دردشات القهاوي تربة مناسبة لفض الأسرار، وإطلاق الشائعات، الجلسة المسترخية،

وأدوار الدومينو والطاولة والمعسل والشاي، ينبّهني إلى الكلمات التي تقال في حقي، والتلميحات التي تنال مني، وإلى ما يُعد من المؤامرات، أَدْخُل في الوقت المناسب لأحبطها. إذا زادت مساحة السر، فإنه لن يكون كذلك.

أرجأت قرار تعيين الشاب محمد عبد السميع مفتاح، حتى قرأت كل ما يتصل بحياته، من قرية كمشيش في المنوفية، أتى إلى الوظيفة بقراءة الإعلان، لا أقارب له في القاهرة، حتى شهادته في الحاسب الآلي حصل عليها من معهد بشبين الكوم، ما يضعه زهيري في أدنى، أسجله، أَدْفَع بالورقة إلى مفتاح، يمضي إلى الحجرة الصغيرة المجاورة، يغلقها — من الداخل — جيداً، يضيف بيانات الورقة إلى ما في الكمبيوتر، يقتصر على الأسماء التي يذكرها زهيري، إهمال سرية البيانات يعني فصله بلا مساءلة.

ما أتلّقه من زهيري دافعي لاتخاذ القرار: أوافق على الحافز، أو الخصم، عدم احتساب الإجازة، إيقاف الترقية، الإنذار بالفصل، أكتفي بما يبلغني من زهيري، أهمل مذكرات رءوساء الأقسام، لا ألتفت إليها.

انتفضت من الكرسي لصوت الاقتحام، أغلق زهيري الباب خلفه، واتجه ناحيتي بنظرة مرتعبة، تقلّصت ملامحه بما لم أراه من قبل، غابت الحفاوة الدائمة التي كان قد ألصقها بوجهه، تطوحت يداه بارتعاشة واضحة، كمن يواجه خطراً لا يقوى على احتماله. — إنهم يصعدون إليك.

قفزتُ — بتلقائية — خارج المكتب، أحسست بالنيران تتصاعد في داخلي، وبميلٍ حادٍّ للتبول، انطمست المرئيات. لا أحد؛ حتى زهيري تحوّل إلى شبحٍ غائب التفاصيل، التوقع أقسى مما أحتمله، تطايرت الأوراق — في اندفاعي — من فوق المكتب بتطويحة يدي، ارتطمت بالكراسي والطاولات الصغيرة، قذفني الخوف خارج النافذة المفتوحة.

مدار القلب

صحوْتُ في غرفتي، أمضيتُ الليل أناقشُ أصدقائي مشكلات تهمُّنا، تَلَفْتُ بالدهشة، فهي ليست الغرفة نفسها، ولم تكن كراسي الأصدقاء في مواضعها.

كتمتُ أُمِّي إشفاقها: «كنت تحلم.»

لا أعرف إن كان ما شاهدته حلمًا، أم أنه حلم يقظة، أي تلك اللحظات التي تسبق الصحو من النوم؟ أم أنه مجرد تشوُّش يصنعه اختلاط المرئيات في الذاكرة؟

أُظِلُّ دقائق ممدِّداً على السرير، أسرح فيما يشبه الخيالات، أحاول تجميع أجزاء الحلم، أفصل بينه وبين وقائع الحياة اليومية، الحياة المعاشة بالفعل، أتذكر المشهد، والذي يليه، تتوالى المشاهد، أتبيِّن الفجوات التي نسيتهَا.

نظرت — بتلقائية — ناحية بقعة الفراولة التي انتشرت على الجلباب الأبيض، بدت البقعة الحمراء في موضعها بالصورة التي نمت عليها، لم أتبيِّن إن كان حلمًا أم حادثًا يشبه الحلم! لغرابته تصورته حلمًا.

حين قال لي سيد عبد ربه أنه طلق زوجته، سألت: «ألم تقل هذا من قبل؟» قال إنه صحبها إلى المأذون في الصباح، وطَلَّقها، أُمِلَّ الانفعال قراره، ولم يكن في باله. كتمت الدهشة في داخلي، كان قد روى لي عن الطريق المسدود الذي أوصله إلى قرار الطلاق، لا أذكر المكان ولا الزمان، تغلَّفت المرئيات بضبابية غيَّبَت الملامح، وإن ترامى هدير أمواج البحر في اصطدامها بصخور الشاطئ.

عيناى المفتوحتان، وحركة جسدي، والكلمات التي أقولها، والمشاهد التي أراها، والتلَفْتُ، والأذان في أبو العباس، وضوء النهار، والزحام، والعراك، والاندساس في حلقة الذكر، وتلاغط الأصوات، ذلك كله يضعني في قلب الحياة، الفعل والأخذ والرد والفصال، يفاجئني الحلم في لحظة لا أتوقعها، يتسلَّل وسط انشغالاتي اليومية، لا أتذكر الليلة التي

جرى فيها، ولا أتذكر الحلم نفسه، لكنه ينبثق كالمفاجأة، أطيل التأمل، والتقليب، واستعادة الملامح والتصرفات، يرافقني طيلة ساعات اليوم.

بدت سمكة القرش في سكونها على الطاولة، مختلفة عما عرضه الفيلم الأمريكي، صغيرة بما يصعب التصور أنها تُحدث الأذى، بدت صغيرة حتى عن مثيلتها في مرة سابقة.

قال الرجل: «هذه أول مرة نضع القرش داخل الحلقة».

حدست أن صورة القرش اختلفت في ذاكرتي بما رأيته في الفيلم، وما أراه الآن، وما بقي من صورة الحلم الذي — ربما — أتاني في النوم. قال لي عبد الله فودة في قهوة فاروق: «كنت تحلم».

فركت عيني لأتأكد إن كنت أحلم بالفعل، عرفت أنه يقصد تهويل ما قلت، وإن ما قلته لا صلة له بالظروف التي نعيشها. انتترت من النوم على نداء باسمي، تَلَفْتُ لأعرف مصدر الصوت، طالعني الصمت السادر، وحطَّ السكون على الأشياء كلها من حولي. هو صوت أبي، أميزه جيداً، على الرغم من رحيله منذ سنوات.

ومضت عينا أُمي بإشفاقٍ: «قد يزور الموتى أحباءهم، أطلب لأبيك الرحمة». تنهدت، وعدتُ إلى موضعي، ظللت صاحياً لصديّ النداء الذي ملأ أذني، حتى غلبني النوم.

أغمض عيني بعد الصحو، لا للنوم، وإنما للتذكر، لاستعادة أحلام ناقصة، ومتقطعة، وبها فجوات، وأحلام واضحة، متصلة، كأني عشتها في الواقع، تختلط الأحلام والكوابيس والمشاهد الحقيقية والمنامات والأخيلة والرؤى والتصورات متشابكة، تتداخل، أعجز عن التمييز بينها، لا أدري أيُّها جرى في اليقظة، وأيُّها جرى في المنام، يصعب أن يتشكَّل مشهد أطمئن إليه؛ «شوارع خافتة الضوء، بنايات، مساجد، ميادين، ساحات، ضوء فنار، حلقات ذكر، زراعات، مقاهٍ، شاطئ، مآذن، سيارات، جبال، رمال، غابات، أسواق، بلانسات صيد، إنشاد، ربما عجزت عن فصل ما بينها». أستقر على المعنى الذي صحت عليه، أو أنه يظل في الذهن، يعاودني في أثناء النهار.

أضيق وقتاً في إقناع نفسي أن ما رأيته كان حلاًماً، مشاهد متصلة صنعتها المخيلة، وليست وقائع حقيقية عشتها. في ذات صباح دعكت عيني، وسألت: «أين محسن الغمري؟»

قالت زوجتي: «من أسبوع ودَّعك؛ ليعود إلى طنطا».

أظهرت الحيرة: «أمضينا الليل على هذه الشرفة».

جدران الغرفة المصمتة، إلا من نافذة صغيرة تطل على الكورنيش، نبّهتني إلى أن جلستني إلى محسن الغمري كانت في الحلم، يختلط فهمي لما جرى، إن كان حلمًا، أم أنه حقيقة عشت تفصيلاتها.

بدا الشارع الضيق ملتفًا بالظلمة والصمت ... شدّتنني العصي الغليظة في أيدي الرجال الثلاثة، فلم أتبيّن ملامحهم، اندفعوا من أول الطريق، أحطت وجهي بذراعي أتقي العصي المرفوعة، الضربة الأولى انبجس فيها الدم والألم والصراخ، زاد صراخي للدماء التي غطّت الرؤية.

قلت وأنا أهز رأسي: «كابوس فظيع!»

أرجعت الخدش في وجنتي إلى شفرة الحلاقة، فطنت — لرؤية ذقني في المرآة — أنني لم أكن حلققتها. كان اهتزاز الباص قد قارب الأجساد الواقفة في الممر، اصطدمت الأيدي والأكتاف والصدور، ربما الخدش أحدثته — في تلك اللحظة — إصبع تتقي الخطر، لكن إقامتي في البيت ثلاثة أيام أخيرة، يقصر الزحام — الذي أذكره — على الحلم، في الحلم اصطدم الظفر — لحظة اهتزاز الباص — بالوجنة، لغياب الألم، فلم أتحسّس الموضع عند الصحو، لكن الحادثة، الحلم أذكرها، يصعب أن تكون قد جرت في الحياة المعيشة.

حين سأل عبد الله فودة عن سبب وجود كدمة زرقاء في جبهتي، فتشت عن إجابة لا تستدعي سؤالًا تاليًا، ابتسمت أعيننا وهو يودعني آخر الليل، لا بد أنه رأى جبهتي الخالية من الكدمات، الغلالات أحاطت بالميدان؛ الذي شحبت قسماته، أقف وسط المصلين، أؤدي الركعات والسجود وراء الإمام الذي لا أراه، الكدمة ليست أثر حادث، لكنها تأثير الصلاة، «هل تداخل الحلم بما حدث فعلاً».

أعجز عن تذكّر الأحلام، أو أتذكر وقائع، وتنطمس وقائع أخرى، ألتقط ما جرى بالفعل، أنتزع من زحام الرؤى والأحلام والكوابيس والمنامات والأخيلة؛ التي تبدّدها اليقظة، صليت في غير موعد، قرأت القرآن، تأملت عظات أمام أبو العباس، اجتذبتني كلمات المنشد في الساحة الملاصقة لحلقة السمك، تطوّحت مع الذاكرين على رصيف البوصيري.

صعدت الطريق — ذات عصر — إلى مكتبات الموازيني، تأكدت من سهولة دسّ النوتة الصغيرة داخل جيب الجاكتة العلوي، أزمعت أن أسجّل فيها أحداث يومي كلها، وما أعيشه من لحظة استيقاظي في الصباح إلى تهيئتي للنوم. أستعيد ما علق من ضبابية الحلم، اليوم أربع وعشرون ساعة، هل ما حدث قد حدث بالفعل، أو أنّ الحلم تداخل في حركة اليوم، فتصورت أنه ما حدث! تأخذني المشغوليات، أحاول الاستعادة، أسجّل ما يصل الأحداث،

لا أغفل شيئاً، لا أفلت حتى التأملات الشخصية واستعادة الذكريات، لا يشغلني التذكُّر في ذاته؛ إنما متى جرت الواقعة؟ وكيف؟ وأين؟

إذا بدَّلت ثيابي، فإنني أتأكد من دسّ النوتة الصغيرة في الجيب العلوي للجاكيت أو البيجامة أو الجلباب، يختفي الجيب فأطمئن إلى موضع النوتة في جيب البنطلون الخلفي، تدوين ما ألاحظه، ما ألأمسه، ما يلفت انتباهي، أعيش حياة حقيقية، وحياة في الحلم، أكتب كل شيء، ما أحياءه — بالمعايشة المتيقظة — يمكن أن يساعدني في الغربة، التفرقة بين ما جرى في الواقع، وما جرى في الحلم؛ الوقت، طبيعة المكان، الكلمات المتبادلة، حتى التفصيلات الهامشية، التي لا تثير الانتباه.

امتلات النوتة بالكثير من الأرقام والحكايات والمشاهدات والملاحظات والأسئلة والآراء والنكت، أسجِّل ما حدث، أهمل التعليقات، لا أكتب: في رأيي، أظن أن، ألاحظ، هذا خطأ، هذا صواب.

أغمض العينين عند الاستيقاظ، لا أفتحهما، أستعيد ما جرى في النوم، ما أتذكره من الأحلام والكوابيس، أشرد في الأحلام التي لا تزول، والأحلام العابرة، وأحلام اليقظة، والمنامات والكوابيس، الكوابيس لا تشغلني، لا أوفِّق — عند الصحو — في اللمة ما رأيته، تختلط الأنبياء والمخالب والأجسام الهائلة والزئير والصراخ، المشاهد متقطعة كما التشويش في التليفزيون.

ربما الاستيقاظ مخرج من كابوس أعبني، أنتفض بجسدي كلُّه، بآخر ما عندي، أحرك أطرافي حتى يبتعد الكابوس، أعود إلى ما لا يخيفني.

بدا الانزعاج في عيني زوجتي: «كنت تصرخ؟!»

— كابوس مخيف.

— زال والحمد لله.

ومضت خارج الغرفة: «سأحضر لك كوب ماء.»

استعدت الرؤى، وأنا ألتقط أنفاسي: أجري بكل قوتي، والسكين الهائلة في يد الرجل الذي يطاردني ... تلامس جسدي. حسرت الجلباب، نظرت إلى موضع الملامسة، في منتصف البطن تماماً، بدت الثقوب الحمراء الصغيرة، كان ما عانيت في أثناء النوم قد جرى بالفعل. تبين أن الحلم لا ينقطع بالاستيقاظ، أعود إلى النوم، فيعود الحلم إلى تواصله، هو الحلم نفسه بتفصيلاته. قلت لزوجتي: «أيقظتني من حلم جميل.»

بدا الحلم في انفصاله بالصحو واتصاله، كأنه بلا نهاية، أغمضت عيني، كأنني أعود إلى النوم، استغرقت في النوم بالفعل، في حلمٍ أحببتُ ما جرى فيه.

ضِقت بكثرة ما رأيت، بدأت في استعادة ما أذكره من الأحلام، ألتقط ما يبدو غريباً، وغير مألوف، وما يحتاج إلى تفسير. تكتفي زوجتي بالقول: «خير؟»

وحين رأيتني في قبوٍ مظلمٍ كالقبر، قال لي عبد الله فودة: «إن الموت في الحلم يعني طول الحياة»، شغلني — في الفترة الأخيرة — ما كنت أصحو على مشاهدته، تختلط الرؤى، وتتشابك، تبدو واضحة، أو يلفها الشحوب، يتبدل الأشخاص والتصرفات، تظل الأماكن على حالها، كأنها القدس بالأقصى وحائط البراق وقبة الصخرة (ثبتت الصورة في ذاكرتي منذ الطفولة)، والتلال المحيطة والمآذن وأبراج الكنائس وبيت الشرق والبيوت القديمة (شاهدتها في فيلم تسجيلي) والنوافذ الأشبه بالمشربيات والمصاطب والبواكي والبازارات والدكاكين ذات الأبواب الحديدية، ومعاصر الزيتون وباعة الخضار والفاكهة والخبز والميرمية والشوارع الضيقة والأزقة والأسوار والقلاع والحصون والأبواب التاريخية والأقبية والأضواء المتسللة من القيساريات (لاحظت المشاهد نفسها تتكرر في كل المدن العربية القديمة) وأعمدة النور ومفارق الطرق والميادين والساحات وباب الخليل وباب العمود ومنطقة الباب الجديد ومنطقة القصور الأموية والملابس الفلسطينية والكوفية (قرأت — آخر الليل — كتاباً عن القدس) والبساتين وأشجار السنوبر والزيتون والبرتقال والنخيل والزعر والنرجس والحنون (أسماء متكررة في الإبداعات الفلسطينية) واختلاط روائح البخور والزعر والبهارات والفلفل وتبغ النارجيلات، تقارب الحلم، تكرر — في الليلة الواحدة — أكثر من مرة، كأنه صور متلاحقة، ما يختفي حل — بدلاً منه — صور أخرى، تتعدد الصور، لكن الملامح والألوان والظلال تعمق المشهد الكلي، وتثبته، رؤى شفيفة، هامسة، كحلم، أو تقتحم نومي بالرؤى مرة، وأن تتغير المواقف والتصرفات والكلمات، كأنها كابوس.

مقام الصحو

يعرف مقابر العمود، تردّد عليها بصحبة أبيه، منطقة الطوبجية ملاصقة للمقابر، بلا سورٍ فاصلٍ بجوار المستشفى العمالي، الأسوار العالية تحيط بالطرقات المتقاطعة والأحواش، دخلا الباب الذي استلقت ضلفاته على الحائط، خلف سوق الأغنام، وباقات الخوص والزهور والورود والرياحين والنعناع، والصدقة، والرحمة والنور.

سار في الأرض الترابية، على جانبيها أحواش، تتخلّلها قبور بلا شواهد، لم تعدّ الأحواش — كما كان يذكر — ذات أبواب خشبية مغلقة، أو مفتوحة، تتناثر بينها أشجار صبار، إلى جانب كل باب لافتة نحاسية باسم شخص، أو عائلة، يُنسب إليها المدفن. غاب عنه موضع حوش عائلته.

في آخر زيارة، شاهد اللوحة المعدنية على الجدار، إلى جانب الباب، اختفت اللوحة، واختفى الباب الخشبي الضخم، وتعريشة اللباب التي كانت تصنع سقفاً للحوش. قلّب في أوراقه، استعاد الاسم ورقم التليفون من البطاقة الصغيرة، ترامى الصوت، يعتذر بموت التُّربي، وانشغال أبنائه بمهن أخرى.

فطن الصوت إلى حيرته:

— لمن المدفن؟

— طه الدسوقي.

ما أذكره أن المدفن ضمن الأحواش الثلاثين على اليمين، في نهاية شارع الرحمة. وجد في الكلمات طرف خيط، التقطه، سار في شارع الرحمة إلى قرب نهايته، تبدّل المكان بما لم يُعدّ يذكره، تجاورت الأحواش والشواهد والمقابر، تشابهت، لم يعرف في اختلاطها أين مدفن العائلة، نُزعت الأبواب والنوافذ الحديدية المطلة على خارج الأسوار، والمقايض ضاعت، وتساقط الطلاء، وذوّت أشجار الصبار، ما حدث كأنه بفعل تخريب،

وليس لعامل الزمن، تناثرت المقابر بين الأحواش، وعلى جانبي الطرقات، امتدَّت الجبال أعلى الجدران المتقابلة، علّقت عليها ملابس مغسولة.

أنفاس الموت في الأحواش والأسوار الحجرية والقبور والشواهد والسكون وطنين الذباب والرائحة التي يصعب تفسيرها. هل بدأ التردّد على المقابر لإحساسه بالنهاية؟ أ يكون قريباً بعد تقدم العمر؟

هذه هي السن التي تتحرك — في مساحتها الضيقة — أفكار الموت، تسيطر عليه عشرات الرؤى والتصورات والتخيلات. لم يناقش أسئلة من أي نوع، وإن اطمأن إلى أنه يجب أن يرقد إلى جانب أمه وأبيه في هذه المقبرة تحت الضريح، الذي يتوسط الحوش. كان أول تفكيره في زيارة المقابر، حين ظهر أبوه في المنام، لم تفلح ابتسامته في مداراة ما بداخله من استياء: هل نسيّنتي؟

تكرر الحلم، والسؤال الذي لم يتغير.

قال فهمي دعبس، زميله في المكتب المجاور أنه «سيتأخر غداً لزيارة مقابر المنارة في طلعة رجب». استطرد في نبرة معذرة: «أشهر قليلة مضت على وفاة أبي.» مضت في حياته أشهر وأعوام، نسي الأمر تماماً، أصرت أمه أن تبني إلى جانب القبر، تهوّن على الميت حساب الملكين، تدعو بالمغفرة، لا يذكر متى كانت آخر زيارته إلى العمود، ربما قبل عشرة أعوام، وربما أكثر، أعدّ ترتيبات جنازة أبيه، واستخرج تصريح الدفن، وشيّع الجنازة. اخترقت الجنازة شارع الميدان إلى التقائه بسوق راتب، صُلي على الجثمان في جامع الشيخ، اتجهت ناحية ميدان المنشية، مالت في شارع السبع بنات حتى مقابر العمود.

صحب أخته وأبناءها صباح اليوم التالي لزيارة شق القبر، التقط التسمية من أخته، هو يوم الحساب، يسأله الملككان عن أفعال حياته، يجب بما حدث تماماً، إذا أخفى، فإن القدرة تنطق جوارحه؛ قعودهم حول الضريح؛ للتخفيف من معاناته.

دخل — في مرات كثيرة — من الباب الحجري المنزوع الباب إلى شارع الرحمة، تتوقف الخطوات عند قبور أقارب وأصدقاء وزملاء عمل.

صحب أخته في العيدين وطلعة رجب، قبلت اعتذاره — يوماً — بظروف العمل، تباعدت زيارته؛ حتى أهمل الأمر تماماً، لم يعد يتردد على العمود.

ركب الترام من بحري إلى كرموز، عبّر الميدان الصغير إلى باب العمود، شارع الرحمة، يذكر التسمية على اللافتة يسار الشارع الترابي الطويل، القبور المتلاصقة داخل الأحواش،

وبين الطرقات — لم تكن موجودة — تجعل السير صعباً، تأمل بنظرة دهشة، حَمَل جثمان من النعش خارج الأحواش، والسير به بصعوبة بين المقابر إلى داخل المدافن.
سار — بالتذكُّر — قبل أن يلتقي الرجل ذا السحنة المغيرة والجلباب المرفوع إلى خصره، ويجرُّ خلفه فأساً:

— أين حوش عائلة الدسوقي؟

قال الرجل: «لم يعد أفراد عائلة الدسوقي يأتون، أعرف أنهم اشتروا في المنارة.»
ثم، وهو يهيل التراب على المجاديل: «الموتى في قبورهم، الحوش — الآن — لعائلة تعيلب.»

واتجه إليه متسائلاً: «ألم تستضيفوا موتاهم في الحوش؟»

ثم، في لهجة تسليم: «هم الآن أصحابه.»

هزَّ رأسه برفض التصوُّر أن أباه يُدفن في مقبرة عائلة غير عائلته، تعيلب أقارب من بعيدٍ، لكنهم ليسوا عائلته.

لم يعد الحوش كما يذكره، كما عهده من آخر زيارته قبل عشرين عاماً، مستطيلاً، واسعاً، بلا سقفٍ، وإن ظلَّت جانباً منه شجرة كثيرة الأغصان والأوراق، وثمة الكنبه الخشبية والأرضية الرخام، والردهة المخصَّصة للنساء، إلى جانب الحوش، على اليمين — لصق الجدار — قبر صدقة، يُدفن فيه مَنْ لا أهل له، أو لا يملك مدفنًا خاصاً.
حدَّق في الرجل، علِق التراب برموشه، وتناثرت في بشرته ندوبٌ وخدوش وأوساخ، وغطَّت الصفرة أسنانه.

شمَلته ارتجافة، تصوَّر يديه على جسده، تلامسانه، تقبضان عليه، تنتزعانه من الأيدي لتغْيِياه، اليدان تحملان الميت، تهبطان به إلى داخل الحفرة الترابية، ثم تعيدان المجاديل إلى موضعها، وتهيلان التراب، يرفع قامته بعد أن غُيِّب في باطن الأرض عمراً. لاحظ الرجل نظرته المحدقة: «الدفن شغلي.»

ثم، وهو يجول بعينه فيما حوله: «أنا أحكم مدينة من الموتى!»

وأحاط مقبض الفأس براحتيه: «لكن الأحياء يحتاجون إليها.»

وافترت شفثاه عن ابتسامة فاترة: «الشباب والشيوخ سيموتون، الفرق أنه كلما تقدَّم بنا العمر أخذتنا الفكرة.»

على الجدران أسماء، قدَّر أنها لموتى دُفِنوا في الحوش، وأرقام طُمِس معظمها، فتصعب القراءة، لو أن الأعداد الهائلة من موتى العائلة خرجت إلى ظهر الدنيا، لامتَلأت الشوارع

والميادين والأحياء والمدن القريبة والبعيدة، إلى مناطق لا تخطر في البال، أعداد يصعب حصرها؛ المقبرة ليست مجرد بناءٍ يتركه إلى بناء آخر، هي تاريخ العائلة من زمن لا يذكره، أو أنه لا يعرفه.

قال: «ليس بيني وبين الموتى خصومة، خصومتي مع من دفنوه في قبورنا.»

قال الرجل: «أنا لا أفتش عن أصل الموتى.»

واتجه بنظراته ناحية الباب: «يصحبهم أهلهم موتى إلى هنا.»
وأردف في لهجة تقريرية: «حق الموتى في الدفن مسئولية إدارية، الحي هو الذي ينظم الأمور.»

ورفع صوته في إنهاء للحوار: «ناس كثيرون يطلبون الدفن، إدارة الحي لا تستطيع أن تفعل شيئاً.»

طالعه ما لم يتصوره، وأخافه؛ عشرات السحن — لم يكن رآها — تلاصقت في الحوش، بين الشواهد وشجيرات الصبار، واستندت إلى الجدران، تداخلت التكوينات والملامح، لم يستطع أن يميزها، ثم مَيَّز — من بينها — أباه وأمه وأعمامه، ووجوهاً أخرى فطن إلى أنها لأفرادٍ من عائلته، وطفلاً يكاد يفرد قامته، خَمَّن أنه أخوه الأصغر الذي مات، وهو في مثل سنّه.

— هل قاموا من الموت؟

استعاد ما كانت ترويه أمه عن ظهور أرواح الموتى في المقابر، وحكايات أبيه عن عفاريث القيالة.

السكون هو الذي يحِرِّض أرواح الموتى على التجوُّل في المقابر، تتحوَّل إلى دنيا ثانية، لا أكفان مما التفت بها داخل المقابر، ولكن لباس الحياة الدنيا، ما كانت ترتديه قبل أن تثبت حركتها، جلابيب وبدل وقفاطين وجبب وفساتين وتاييرات، ذلك ما يحدث وقت القيالة، تنقطع الرِّجل في الطرق الترابية.

ما بين أول الليل وآخره، تنتقل أرواح الموتى تحت خيمة الظلمة. ذاب ارتباكك في العبارات المرحِّبة والدعاءات والهمسات والأسئلة.

أدرك أن روح أبيه لم تفارق البيت، يظهر التكوين الجسدي في ومضات سريعة، يعلو وقع قدميه على سُلّم البيت وفي داخل الشقة، تتحرك صورته المعلقة على جدار الصالة.
لم يعد — بعد الأربعين — يضيء البيت، يعرف أن الروح تذهب بعد انقضاء المدة، تعود إلى مستقرها.

قال الأب: «لا أدري إن كنت قد جئْتُ في موعدك، رقادنا طال تحت التراب!»

ونطقت عيناه باللوم: «كاد اليأس يميّتنا مرة ثانية من قدومك.»
أستطرد للدهشة في ملامحه: «عائلة تعيلب شغلوا الحوش، لا يتركونه، لا نجد فرصة للانطلاق.»

تحركت الأجساد الطيفية، اقتعدت الأضرحة وحافة السور، تناثرت في الزوايا، حلقت أعلى الحوش، كأنها سحب صغيرة متداخلة، لاذ بعضها بأغصان الشجرة المطلة من الحوش الخلفي.

لم ير شيئاً يستعين به أبوه، ولا من حوله، في التحليق داخل الحوش وخارجه، يختلطون في البراح بأطيافٍ أخرى، أرواح أخرى، محلقة، لا نهاية لها.
جلس أبوه فوق الجدار، متقاطع الساقين، وظهره كمن أسنده إلى الفراغ.
ألم فطيع تقلصت به ملامح أبيه قبل أن يتحشرج صوته بما لم يألّفه: «هل هذا هو الموت؟» فطن أبوه إلى ما يدور في باله، استعاد ما جرى، لم يجرب هذا الشعور من قبل، تنفصل الروح عن الجسد، يظل الجسد ساكناً، هامداً، يدركه التحلُّ، بينما الروح تحوم في سماء الشقة.

معنى الموت نهاية كل شيء، الروح لا حيلة لها، الجسد هو الذي يقدر على الفعل، لكن الجسد — وحده — يعاني من التحلُّ والتلاشي، الروح تحلّق في السموات، وإن ظلت أربعين يوماً في فراغ الحجرات؛ قوى خفية تمنعها من أن تنطلق عبر النوافذ إلى الفضاء الممتد بلا آفاق، تظل داخل الشقة فترة معروفة، أربعون يوماً وينتهي كل شيء، تنتقل إلى آفاق أخرى، حاول أن يضع لها تصوّراً؛ مما يتذكره من جلساتٍ بين أمه وأبيه، بينهما وبين جدته وأقاربه. بقي في الأربعين يوماً داخل الشقة، شاهد ما جرى، حتى حمل الرجال جثمانه إلى باب البيت، راقب توسيدة النعش المفتوح، إسدال الغطاء الهرمي فوقه، انطلاق الجنازة، كلُّ يريد أن يكسب ثواب المشاركة في حمل النعش. تابع الخطوات المهرولة، حتى مالت الجنازة في انحناء الطريق، الانتظار داخل الشقة هو ما يملكه، عرف أن حرص أبنائه على إضاعة الحجرات كلها، كي تذهب الوحشة عنه.

أصرّ أن يرافقه إخوته خارج البيت، مضى يوم، وثانٍ، وثالث، ظلت الشقة مضاعة، ومغلقة، طيلة الأيام الأربعين. ليس لدى الروح في الحياة ما تفعله، ربما تعود إلى الأماكن التي أمضى فيه المرء حياته، تحوم، تحلّق، تطمئن إلى الأحوال، تظهر في المنامات، لتواسي، وتحتُّ على المواجهة.

قال الأب: «ألزمتنا عائلة تعيلب قبورنا، بينما الأرواح الأخرى تنطلق بين أحواش الموتى دون محاسبة.»

قال كهل يقارب الخمسين، اطمأن له بمشاعر القرب: «لكي نظل في قبورنا، لا بد أن نحرص على الحوش!»

تحركت شفتا عم إسكندر بما لم يتبيّنه.

استعاد الكلمات، تلكاً العم شفيق الحلي في نطق الحروف: «لا تبتعدوا!»

كيف تتقبّل أرواح الموتى ردم المقابر؟ كيف تتقبّل نقل الأجداث إلى مواضع أخرى، تختلف عن المواضع التي رقدت فيها، وواجهت حساب المَلَكِين، وتفسّخُ الجسد، الجماجم والعظام والتراب والديدان، تحلّه، امتزاجه — تراباً — بأرض المكان؟! سار بين الأحواش وشواهد القبور في اتجاه الباب الخارجي.

الموظف — في إدارة الجبانات بحي غرب — جرى على الأسماء المثبّنة في الكشكول الهائل، وقال بنبرة تأكيد: «الحوش باسم عائلة الدسوقي.»

— هي عائلتي.

— ما شكواك؟

— العائلة التي تنسب الحوش إلى نفسها.

— استولوا عليه بالقوة؟

— أبي وأعمامي أتاحوه لهم.

وأغمض عينيه في تأثّر: «لم يكن لموتاهم مدفن.»

— هل كنتم تتردّدون عليه؟ تزورونه؟

— اشترت أسر العائلة في المنارة، قلّ التردّد على العمود، ثم لم يعد يذهب أحد.

— لذلك نسبوه إلى أنفسهم.

— بماذا تنصّحني؟

— العودة إلى المكان.

— كيف؟

عرض الرجل أن يتولّى هو الإجراءات بنفسه، يعنى بجمع البيانات والمذكرات والعقود، وكل ما له صلة بالمقبرة، أراضى المدافن جميعها ملك للدولة، السائد هو حق الانتفاع للمقبرة، العقد ممتد لا ينتهي، ويورث.

— ربما انتقلت مدافن العمود إلى المدافن الأخرى، لماذا لا تنتقلون إلى المنارة أو سيدي

بشر أو المندرّة أو الدخيلة أو المكس أو كوم الشقافة؟

مقام الصحو

ظل صامتاً، يغالب الارتباك، داخّله شعور أن الرجل يطيل في التسويف؛ كي لا تستعيد عائلته الحوش، علا صوت الموظف بلهجة رافضة: «عملي أن أقرّ بحقّك، وعليك أن تحصل عليه.»

ودسّ عينيه في الأوراق؛ بما يعني أنه قال ما عنده.

رقة ابتسامة

غالب ارتعاشة في أسفل ظهره وساقيه، حتى انفتح الباب الحديدي أمامه، غطى الدم وجه الشاب وملابسه، أغمض عينيه، وفتح فمه، وبدا كأنه لا يستطيع الوقوف، كأنه يعاني الموت؛ وهو يسند ذراعيه إلى كتفي الرجلين. تلفت بالخوف.

الطريقة مظلمة، إلا من ضوء خافت يصدر عن لمبة تعلو الدكة الصغيرة، إلى جانبيه جنديان سكنت نظراتهما، يشحب الضوء في مدى الرؤية حتى يغيب تمامًا. أعاد النظر إلى ما انكشف عنه الباب المفتوح، لا شيء، عدا كرسي معدني يتوسط الحجرة المصمتة الجدران، من فوقه مصباح عالي الضوء.

استغرقه تداخل الصيحات والصرخات داخل الحجرة المغلقة، في ذهنه حكايات عن الحياة داخل المبنى، الذي لم تُتَح له العصابة على عينيه رؤيته، نسي ما سمعه من أساليب التحقيق، وإن استقرت الصور في ذهنه بما يخيفه.

منذ اقتيد في أولى ساعات الفجر، لزم الصمت، لم يومئ؛ حتى بما يدل على معنى، طرف خيط يكرّونه لبلوغ الآخرين، حين أمر الرجل ذو الشارب الفضي الكث، أن يقتادوه إلى حيث هو، وعد نفسه بأن يظل في صمته، لا يعطي انتباهًا، ولا يلتفت. تلملم لتعثر الشاب في خطواته الزاحفة، كأنه يلامس الأرض بأطراف قدميه.

لمح رقة ابتسامة على شفطي الشاب في نظرتة الواضحة ناحيته، والرجلان يمضيان به في الطريقة الطويلة، حتى تلاشت المرئيات في الظلمة.

غواية

حين صعد الشبان الخمسة إلى عربة المترو، كان يقرأ جريدة، وهو واقف في الزاوية بين ظهر المقعد والباب المغلق من الناحية المقابلة. كانت المقاعد ممتلئة، وتناثر الوقوف في المساحات الخالية.

استأنف الشبان كلامهم في وقفهم بالقرب منه، تشاغل بقراءة الجريدة، وإن عكست تعبيرات وجهه ما يبيّن أنه يتابع نقاشهم. التقط ملاحظة الشاب المنمش البشرة عن انتصاف النهار دون أن يتناولوا طعامًا، أخرج من جيب الجاكت قطعة شوكولاتة، همس بلهجة مشفقة: «تصبيرة!» تنبّه له الشبان.

أطالوا التحديق في ملامحه وهيئته: في حوالي الخامسة والأربعين، يرتدي بدلة رمادية، ورباط عنق من اللون نفسه، عيناه قلقتان لا تستقران بين أجفانه الضيقة، فهو يطبق جفنيه، ويفتحهما، في حركة عفوية، سريعة، ويكثر من رفع إصبعه؛ ليعيد النظارة المنزلة على الأنف إلى موضعها، ويمسك في يده منديلًا لتنشيف العرق المتصبّب في وجهه.

قال الشاب الطويل القامة: «وأنا ... أليس لي قطعة شوكولاتة؟» رسم على وجهه ابتسامة واسعة، وأشار إلى الشاب المنمش البشرة: «أعطيته قطعة كنت أحتفظ بها لنفسي.»

التقط الشاب ارتجافة في عينيه، فقال: «لا شأن لي ... أريد شوكولاتة.» غلبه ارتباك، بدا منطويًا على نفسه، ومتخاذلاً، رفع الجريدة بيده مثل من يحاول الدفاع عن نفسه، تشجع الشاب الطويل فاخطف الجريدة، علّت ضحكات الشبان، امتدت يد الشاب المنمش البشرة إلى الجيب العلوي، أخذ القلم، وقذف به في الهواء، التقطه، أعاد ما فعله مرات، ثم قذف به من النافذة.

صرخ: «القلم!»

انعكست نظراتهم ارتجافة في عينيه، وشى تَلَفُّته أنه يريد الابتعاد، تقدّموا نحوه في نصف دائرة، عاد بظهره إلى الراء حتى التصق بالجدار، ظلّوا يرمقونه بنظراتٍ قاسية، ويكُورون قبضاتهم، يقتربون، يقتربون.
كان الشاب الممتلئ الجسد أقربهم إليه، صفعه بظهر كَفِّه، تبعه الشاب الطويل ذو النظارة الطبية بلكمة، شجعهم تَكُورَه على نفسه، ولامحه الخائفة، على معاودة ضربه، انهالت قبضاتهم وركلاتهم على جسده، لا تتخيّر الموضع الذي تصيبه.

الجسر

إلى مريد البرغوثي، تحية له، ولرام الله.

حين دخلت المقهى المطل على الميدان، فلأنه بدا أقرب الأماكن إلى الجسر، ولأنني كنت أريد أن أستعيد ما حدث.

التفتُ — بعفوية — ورائي، قبل أن أخطو داخل الجسر، يسبقني ويتبعني العشرات، رجال ونساء وأطفال، يحملون الحقائب والأكياس، أو يكتفون بحافظة ورق. يصدر عن وطء أقدامهم لخشب الجسر تلاغط طقطقة. أعرف أن المئات يعبرون الجسر كل يوم؛ عمان هي الترانزيت، ميناء العبور من مدن المنفى وإليها، أحاذر في خطواتي، الطقطقة المنبعثة من تحت القدمين تشي بقرب سقوطه.

لم أتبيّن من تقارب السحن والملابس، وحتى اللغة العربية التي كان يتحدث بها الجميع، مَنْ هم منا، وَمَنْ هم من الإسرائيليين. شردت في روايات أبي، ونحن نجلس في الشرفة المطلة على المنتزه، عن جيرته لأسرة يهودية في حي الظاهر، أعوام دراسته في القاهرة، فضّلت أن ألوذ بالصمت والانطواء، لا أتكلّم إلا إجابة عن سؤال.

قدمت أوراق أمنا وأوراقني إلى الضابط الإسرائيلي من كوة النافذة الزجاجية، أشار بيده إلى صفوف الكراسي في الصالة المستطيلة، تنبّهت من الشرود الذي أخذني على النداء باسم أمنا، واسمي، دفع الضابط بالأوراق من وراء الكوة: «المرأة تدخل».

ونقر بإصبعه على بقية الأوراق: «حاتم عبد الهادي ... لا يوجد تصريح بالدخول».

دنوت من الكوة الصغيرة: «أرجو أن تتأكد ... أنا من مواطني رام الله».

من دون أن يزايل هدوءه: «أنقل عن الأوراق، وليس عن مزاجي».

غلبني الارتباك، لم أعرف من ينبغي أن أتجه إليه، فتكلمت إلى كل من أنصت لي، غلبني اليأس، حاولت أن أتجنبَّ الوداع الذي لم أكن أعددت له نفسي. أومأت أُمِّي إلى رأسها، حملتُ الحقيبة، ووضعتها عليه، أشفقتُ لاهتزاز جسدها تحت ثقل الحقيبة.

حتى لا تتقابل عينانا، تظاهرت بمتابعة الحركة في نهاية الجسر، لم أكد أتابع سيرها البطيء، حتى التفتت بجسدها كله، كأنها حدثت أنني أحتضنها بنظرتي. لوحت بيدي، في مغالبة الارتباك، وابتعدت.

— غريب أننا نستطيع لمَّ شملنا في باريس، ولا نستطيع ذلك في فلسطين. كانت هذه المرة الأولى، التي تغادر فيها أُمِّي رام الله، لم تغادرها حتى أيام الاحتلال، ولا أيام السلطة الوطنية. تصفَّح الضابط الإسرائيلي طلب التصريح لها بالخروج من رام الله، واثته الرغبة في الدعابة: «تريدين الالتقاء بأولادك في باريس، لماذا لا تقيمين هناك، إنها مدينة جميلة.»

اكتفت أُمِّي بالقول: «رام الله أجمل!»

ربت كتفها: «لا شيء يظل على حاله.»

سافرت مع أُمِّي من رام الله إلى عمَّان، سافر خالد من القاهرة، كنت — أنت — تنتظرنا في باريس، تنبَّهت إلى موضعك خارج مبنى المطار من صيحة أُمِّي: «نايف.» وأنا أدفع إليك بالكيس البلاستيك: «هذه زجاجة زيت زيتون ...» واحتضنت كتفك: «أردت أن أذكرك بزيتون رام الله.»

التمعت عيناكِ بومضة حزينة: «هل تغيب رام الله عن بالي فأحاول تذكُّرها؟» وعلا صوتك بالانفعال: «أنا هنا أفتقد حتى الحجر الأبيض الذي بُنيت منه رام الله.»

قال خالد: «الطمي في حياة المصريين من قبل أن يعيشوا في الوادي، لكنهم — في الأزمنة القديمة — فضلوا أن يشيّدوا البيوت والمقابر بالحجر، وليس بالطوب اللبن.»

استعدت نظرتي إلى البناءات المقابلة: «لماذا اخترت الإقامة في هذا الشارع الخلفي؟» — «لرخص الشقة النسبي، ولأن البيت قريب من الحي الذي يقيم فيه العرب.» ثم، وأنت تشير بامتداد ذراعك: «على بُعد أقل من مائتي مترٍ يوجد المسجد ومحال الأطعمة المغربية ومقهى أم كلثوم والمقاهي التي يتردد عليها العرب.»

تحدثت عن حرصك — في أيام إقامتك الأولى — على الانتقال بالمترو، شبكته الهائلة تغطي قلب باريس وضواحيها، وضعت خريطة المترو في جيبك، وتنقَّلت بين المترو الأحمر

والمترو الأزرق، تجد نفسك في المكان الذي تقصده، سافرت للعمل في جمع العنب، كان الجليد قد حرق المحصول في ١٩٧٤م، تجوّلت — بلا عملٍ — في المدينة، مضيت إلى الأماكن التي تقصدها من أسهمٍ تشير إلى مسار الاتجاهات، الشوارع الواسعة، والبنائات ذات المقرنصات والنقوش، وتماثيل الميادين، وأشجار المارون والبلانتين والكستناء، وتنقل خطواتك في الشانزلزيه وساحة الباستيل وأمام الأوبرا واللوفر وقوس النصر وعلى شاطئ السين، ومربعات البازلت أمام كاتدرائية نوتردام، تتأمل الجداريات المنحوتة والتماثيل التي تتخلل البناء. لم تعد تخشى حتى الشرود، أو الابتعاد عن المحطة، أو فقدان الطريق، تعود بالمترو المقابل إلى محطة البداية، تلجأ إلى مكاتب الاستعلامات داخل المحطة، أو تسأل رجال الشرطة بالإنجليزية، تتلقى الإجابة باللغة نفسها.

قال خالد: «المشكلة أن الفرنسيين الذين نطلب إرشادهم لا يتحدثون إلا الفرنسية.» هزرت إصبعك في الهواء: «قد يعرف الفرنسي لغة أخرى، لكنه يعتز بلغته.» ثم، وأنت تومئ إلى المدى خارج النافذة: «إذا تعرّفت إلى الأماكن على الخريطة جيدًا، فلن تحتاج إلى مَنْ تسأله.»

ورسمت على شفتيك ابتسامة مهوَّنة: «من الصعب على المرء أن يتوه في باريس؛ حتى لو قرر هو نفسه ذلك، يكفي أن ينظر — على النواصي — إلى الشوارع ومحطات المترو.» أضاف خالد ملاحظة عن سهولة الإجراءات في مطار أورلي، سريعة، ولا تحتاج إلى الكثير من الكلام، يقدّرون — ربما — أن السياح والزوار قد لا يعرفون الفرنسية، يلغون توقُّع الارتباك بوضع كلمات بالإنجليزية في بطاقة الدخول، دقائق قليلة كان يقف، والحقيبتان في يده، أمام باب المطار.

قلت: «تابع سائق التاكسي كلامنا.» وأشارت إلى أمنا: «تكلّم بالعربية ... عرفنا أنه جزائري.» أمّنت بهزة من رأسك: «عدد كبير من سائقي التاكسي جزائريون ومغاربة.» وأشحت بيدك: «إذا كنا نعانى الاحتلال، فالكثير من العرب يعانون استبداد الأنظمة.» وأنا أتأمل الشعرات البيضاء التي تسلّلت إلى مقدمة رأسك وفوديك: «يستطيعون العودة إلى بلادهم، تظل أوطانهم، أما نحن فالأمر يختلف.»

تحدثت عن حبك للخضرة، ذلك ما ألفتَه في رام الله، وضعت في قلب السور المعدني المتوازي أصصًا فخارية، بها زهور وورود ونباتات تدلّت أوراقها على الجدار، يهمل أن تطل — في أي وقت — على الخضرة التي تفتقدها، ليست الخضرة المترامية في أرض رام الله،

لكنها تذكرُك بها، أحُدس النشوة في انفراج شفَتِك عن أسماء الأحياء والشوارع والبنائيات؛ البيرة، المقاطعة، ميدان المنارة، شارع الإرسال، شارع القدس، قرية سرده، مبنى المحافظة، كنيسة الله، جامع العين، المكتبة، مقر الرئيس عرفات، حي المسيون، تماثيل الأسود الأربعة المنحوتة في حجر الورد، جامعة بير زيت، رام الله القديمة، تلأل جبال القدس.

حذرك الساكن في شقة البناية المقابلة من أنه سيلجأ إلى الشرطة، إذا لم ترفع أحواض الزرع من فوق كورنيش الشرفة: «لاحظ أنها توسخ واجهة البناية..»

وتداخلت في صوتك دهشة: «المهم أنه يسكن في بناية أخرى ...»

ثم بصوت هامس: «رفعت الأحواض حتى لا تتدخل الشرطة..»

وأشرت إلى المدى خارج النافذة: «في أيام الأحاد أزور فونتناليه على بُعد ٥٠ كيلومترًا عن باريس، أحاول تعويض غياب خضرة رام الله..»

قال خالد: «إن ألفة المكان لا معنى لها في حياته، تنقل بين الكثير من المدن والشقق والفنادق، قبل أن يتم تعرُّفه إلى المفردات، ينتقل إلى ما لم يكن أعدَّ له نفسه باختياره، أو بانتهاء الإقامة، أو بإنهاء تصريح إقامته، يعتني بما في الحقائق أكثر من عنايته بما في الأدراج، الحقائق تسعفه وقت الرحيل الذي ربما يكون مفاجئًا، أما الأثاث فيظل في موضعه. اختلطت نوعيات الأثاث، وأوانه، وعدد الغرف، وسحن الجيران، والأماكن التي تطل عليها، تعرّف إلى المئات في المنافي، زهقوا من الخيام وعشش الصفيح واستمارات هيئة الإغاثة، أخذتهم القبور والمعتقلات والمدن القريبة والبعيدة..»

– أنت تشاهد أفلامًا كثيرة في قناة الدراما، تختلط في ذهنك الأحداث، فتعجز عن تذكر

أي فيلم!

تكلم عن ظروف وفاة والدنا، كانا بمفردهما في الشقة المطلّة على ميدان الجيش، أسند رأسه إلى يديه، ثم سقط الرأس واليدان، وتهاوى الجسد كله.

أدرك أن شيئًا ما، يهدد أبانا بالخطر، شيئًا لا يستطيع أن يلمسه، أو يراه، وإن بدت أنفاسه قريبة، خمن أنه يعاني غيبوبة السكر، استغاث بالجيران والإسعاف، لكن الحياة كانت فارقتة.

غالبت أُمِّي تأثرها: «ثاني مرة يفارقني في زواج أربعين سنة..»

ثم، وهي تغالب النشيج: «أصرّ على أن يقضي رمضان في القاهرة..»

التمعت عيناك: «أجله!»

قالت أُمِّي في تأثرها: «يؤلني أني لم أكن معه، ولم أودعه..»

قال خالد: «شعبنا كله في قوائم الموتى الأحياء..»
ثم، وهو يهز المسبحة الصغيرة بأصابعه: «الموت في ظروفنا روتين..»
أضاف إلى نظرتي المتأملّة في المسبحة، في يده: «لم تفارقني منذ اشتريتها من خان الخليلي..»

وهرش رأسه بطرف إصبعه: «من الأشياء القليلة التي اخترتها بذوقي...»
تكلم عن الزيارات التي يجريها عبر أسلاك التليفون؛ تناقش التقدم الدراسي، والمشكلات الصحية، وظروف الإقامة، والهجرة إلى المنافي، ومشروعات الزواج والطلاق، ونبرات الحنين والشوق واللوم والعتاب والأسى والخوف والسأم والملل.
تكلف ابتسامة: «أظن أن مخترع التليفون كان يتنبأ بحاجة الفلسطينيين إليه، بعد أن يشردوا في الأرض!»
اتجهت ناحيتي بنظرة متسائلة: «حاتم، ما أخبار رام الله؟» قلت: «مدينة تحت الاحتلال!»

– ماذا تفعل السلطة الفلسطينية؟
– الحدود الإسرائيلية والعملية الإسرائيلية والجوازات كذلك.
ثم، وأنا أظهر التملل: «كل شيء يخضع لسلطة الاحتلال!»
غابت أُمي في زحام الناحية الأخرى من الجسر، حملتُ الحقيبة، وملتُ ناحية الضفة الشرقية، طالعتني تقاطعات الشوارع والميادين وزحام المارة والسيارات، جلستُ على أول مقهى صادفته، أستعيد ما حدث. التفتُ – بتلقائية – إلى رام الله الممتدة أمامي؛ البيوت المسقوفة بالقرميد، المتدرجة على الجبل، تتوسّط مساحات الخضرة، والشوارع المسفلتة العريضة، والشوارع الترابية، والجبال، والكهوف الصخرية، والشعاب، وحقول الزيتون وكرم العنب والتين واللوز والشمش، والتلال الخضراء الممتدة إلى أفق البحر، والقرى الصغيرة فوق رءوس التلال.

تلاشى التوقع، وما يجدر بي أن أفعله، اجتذبتني الحيرة؛ لا أدري إن كنت سأبعث هذه الكلمات إليك، وما عنوان المرسَل الذي يجب أن أكتبه على م ظروف الرسالة، أو أتصل بأُمنّا في رام الله، أو بنايف في القاهرة؟
اتجهت نظرتي إلى الجانب المقابل؛ تلال عمان السبعة، والمخيمات، بدت طريقاً وحيدة، لعلّ المشاركة تدلّني على خطواتي التالية.

الحقيقة تحتل الكذب

اخترقنا الطرق الترابية الضيقة، على جانبيها أحواش يتوسّطها شواهد القبور، ويتخلّلها أضرحة منفردة، متجاورة، وأشجار صَبَّار، وقطع حجارة، وكومات رمال، ويحيط بنا الفراغ، والخلاء، وصمت الموت.

في بالي حكايات أُمّي عن عفاريت القِيالة، تفاجئ المارّ في المقابر وحده بما لا يتوقعه، تسخّطه، أو تسحبه إلى باطن الأرض، أو تصيبه بالخبال.

ملنا إلى تقاطعات، حتى توقّفنا أمام بابٍ خشبي، منزوع المصاريح، يعلو ثلاث درجات حجرية، أطلّ من ورائه رجلٌ في حوالي الخمسين، أميل إلى البدانة، على جانبي عينيهِ الضيقتين عماص، أفطس الأنف، يرتدي جلباباً شمّر كمّيه وذيله، وحافي القدمين. حذج الرجل أُمّي بنظرة متسائلة: «تأخرتم ... تصورت أنك بدّلت الموعد!» قالت أُمّي: «كنت سأتصل بك..»

لحقنا أُمّي في صعود الدرجات الرخامية الثلاث، فتح الرجل الباب الموارب، طالعنا الصمت، يعمقه ترامي نباح كلب، عبّر الجدران المتآكلة، وفي مدى الرؤية من حولنا حجراتٌ متهدّمة، وأبواب منزوعة الضلف، وأشجار صبار، وشواهد بدت — لاقترابها — كأنها متلاصقة، وأضرحة، وقباب، ومآذن صغيرة، ورائحة الموت.

تكوّمت الرمال على جانبي القبر المفتوح، ورفعت المجاديل، الضوء المنبعث من الفتحة في أعلى يغطي — بالكاد — بضعة أمتار، والظلمة تلتف المكان، عدا الفسقية في أسفل، رمالٌ ممتزجة بالحناء.

اطمأنت أُمّي إلى وقفتي تحت سقيفة الصاج الممّوج، قبالة السلالم النازلة إلى القبر، أرقب تعالي الظلال أسفل الجدران، واصطبغها بالحرمة فوق الشواهد المتصاعدة في مدى الرؤية.

قال خالي نجاتي، وهو يشير إلى أشجار الصبار المتجاورة: «واحدة تكفي، جذور الأشجار تمتص دماء الموتى.»

شوَّحت أُمِّي بيدها: «ليس صحيحًا.» ثم، وهي تغالب تأثرها: «التراب يأكل الدماء ... مثل باقي الجسد!»

ظَلَّتْ عينا أبي — بعد وفاته — مفتوحتين، ثابتتين، لا تدوران في محجريهما، ولا تطرفان، حاولت أُمِّي تسبيلهما، فظَلَّتَا على ما هما عليه.

لم يستطع أعمامي ولا أخوالي إغماضهما، حين قدم إمام جامع سيدي خضر القريب، قرأ الفاتحة والمعوذتين، وما لم أَتَبَيَّنْهُ من الأدعية، لكنَّ العينين ظلَّتا مفتوحتين، كأنهما قد ثبتتا على ما كانتا عليه، فلا يمكن إغماضهما.

قال الشيخ: «إنه ميت، لا يشعر بشيء!» راحت عينا أُمِّي في الفراغ: «أعرف أنَّ الموت لا بد أن يأتي، لكن لماذا بهذه الصورة؟!» ووشى صوتها بحيرة: «لماذا عيناه مفتوحتان؟»

أضافت في حيرتها: «لماذا لا يستكمل الجسد نومَه بإغماض العينين؟!» وهو يتحسَّس ذقنه: «ربما نسيتم إغماضهما عقب وفاته.» — حاولت.

وطَوَّحت يديها دلالة العجز. أشار خالي نجاتي إلى الشيخ ذي الجلباب للقعود في ركن الصلاة، قال لنظرات أُمِّي المتسائلة: «تلوة القرآن رحمة.»

— «كلام الله جميل في الأوقات كلها.» وارتجفت ملامحها بالانفعال: «ما يشغلني كيف أغلق عينيه فأريحه؟»

وقالت في انفعالها: «قال لي: «ستظل عينا مفتوحتين لأشاهد ما أخافه»، تصورت أنه يقصد المعنى.»

حدس القارئ ذو الصوت الأخن، أمام العينين اللتين رفضتا الإغماض، أنَّ أبي حيٌّ، ظل على تلاوته لآيات القرآن، يعاود رفع نظراته إلى عيني أبي، بتواصل تلاواته، سور قصيرة، وآيات من السور الطويلة.

ظَلَّتْ عينا أبي مفتوحتين، لا يتحرك في داخلهما شيء، ولا تتجه نظراتهما إلى شيء محدد.

استعادت قول أبي إنه لن يغمض عينيه؛ حتى يشاهد ما ينتظر قدومه، تصيخ السمع إلى وقع قدميه، يكتفي بإيماءات التحية، حيث نجلس في الصلاة وداخل الحجرات، يغلق

باب حجرته وراءه، يحمل ما يريد روايته لأمي، مما صادفه خارج البيت، يعلو صوت أبي بالانفعال، نلتقط من زيق الباب كلمات واضحة أو مدغمة، نصلها بتصورات، أنه يعاني في خارج البيت مما يرفضه، ولا قدرة على احتماله، تسبقه أُمِّي في خروجهما من الحجرة، لا يستعيذان ما تكلَّمَا فيه داخل الحجرة، وإن أربد وجه أبي بالحزن، بينما أودعت أُمِّي قلَقًا في تسلُّ نظراتها إليه.

كان أبي — كما روت أُمِّي — يدرك أن العمر قد لا يمتد به، حتى يبلغه النبأ الذي طال انتظاره له، كل ما تراه عيناه يلغي الأمل والانتظار والترقب والتوقع واللهفة والحنين، وكانت تفسر وتنقل نظراته بينها وبين الباب المغلق، هو يخشى ما قد نعانیه بعد وفاته، كان المجهول يشد عينيه، يجتذبهما فيكاد يغيب عما حوله.

تكلم — في أوقات عافيته — عن الخطر الذي لم يأذن له بأن يقترب من حياتنا وتساءل: «من يؤدي الدور نفسه لو أنه مضى؟» وشي توترُ صوته بالعصبية: «حتى لو مت، لن أغمض عيني قبل أن أشاهد ما أتوقعه.»

أدركت أُمِّي من ملاحظات الطبيب والنظرات المشفِّقة، الصامته، أنه يمضي إلى النهاية، كانت تحرص على تلبية ما أوصى به الطبيب، حذَّر من خطورة ماء السقيا لأبي على تقدُّم العلاج، أدركت المعنى لما فاجأ الطبيب إصرارها على إهمال طلب أبي كوب ماء، بالقول في نبرة خطابية: «أعطوه ما يطلبه!»

تقبَّلت فكرة الموت، توقَّعته، نحن نتوقع الموت، لكننا لا نعرف مواعده، الموت حادثة، نهاية حكاية لا نضع نهايتها: «إذا حان الأجل فإن ملك الموت لن يستأذن.»

ثم في لهجة مستسلمة: «تصرفاته رهن بمشيئة الله!»
خيَّب الطبيب أملها لما صرَّح بالدفن، كانت تتوقَّع، تتمنَّى، أن يرفض التصريح، العينان جزء من جسد ميت، هما ميتين؛ حتى لو ظلَّتا مفتوحتين، أنهما لا تريان شيئًا.
أهمل خالي نجاتي توسُّلات أُمِّي، أصرَّ أن يوارى جسد أبي التراب، دون أن تغيب النظرة الثابتة.

قال: «إكرام الميت دفنه.»

ومال برأسه: «هو الآن ميت، لا فرق إن فتح عينيه أم أغلقهما.»
— ظني أنه إذا ظلَّت عيناه مفتوحتين، فلن يكون له حساب.
استطردت موضحة: «لا بد لناكرٍ ونكير أن يتركاه وشأنه!»
وتعانقت راحتا يديها: عمومًا، هو كان طبيبًا، ينتظر ما يبذل حياتنا.

أسلمت أُمِّي عينيها للبكاء، وعمي في داخل القاعة المغلقة، يتابع تغسيل الحانوتي لأبي، وتكفينه، بينما العينان مفتوحتان. اختلطت حول القبر تلاوات القرآن، والأدعية، والابتهالات.

حين حمل الرجال جسد أبي إلى داخل القبر، مدَّت أُمِّي يدها، تحاول منع توريته التراب، أحاطت يدًا خالي نجاتي بكتفَيها، وعاد بها إلى الوراء، وضع راحته على فمها، يمنعها من الصراخ، اخترق بها اللمة الملتفة حتى نهاية الحوش، ظل إلى جوارها، حتى ترامى صوت الشيخ بالتلقين، فعرف أنه قد تمَّت تسوية القبر.

كرر التُّربي ملاحظته في تعدُّ زيارتنا لأبي أيام طلعة رجب ومنتصف رمضان وأول أيام العيدين، بأن الجسد لم يطرأ عليه تغَيُّرٌ ما، اهترأ الكفن، وتمزق في مواضع كثيرة، لكن الجسد ظل على حاله، وظلت العينان مفتوحتين.

هبط خالي نجاتي إلى داخل القبر، وصعد ليؤمَّن على ملاحظة التربي.

استعادت أُمِّي، ما قاله أبي، وتساءلت: «ماذا كان يريد أن يرى؟»

طافت بالمبخرة الخزفية حول القبر في منتصف الحوش، تلاحق تضوع المسك والمستكة والجاوي والحبهان بآيات من القرآن وبسملات وحوقلات وأدعية، حدست أنها تطلب الراحة لأبي، وإبعاد ما يشقي روحه، فيطمئن، تنشر البخور في الزوايا والأركان، وبأعلى ما تصل إليه يدها، تميل — بالآيات والأدعية — ناحية القبر، كأنها تحاول النفاذ من المجاديل، ينصت لها، فيجد التعزية والسلوى وهدوء النفس.

كان الألم ينطق في ملامحها، وهي تتحدث عن الواجب الذي لم تقدر على أدائه؛ أن تغمض عيني زوجها الميت، فهو آخر واجباتها نحو أبي في حياتها، تطرح الأسئلة على نفسها، وتجبب عنها، إذا كان العجز الذي لا حيلة لها فيه عن أداء واجب، يخضعها للمساءلة يوم الحشر؟!

لم تعد أُمِّي تلزم البيت إلا ساعات الليل، تتردد معظم النهار على الجوامع والزوايا والمقامات وأضرحة الأولياء، تصحبن، أو تذهب بمفردها، تطيل الوقفة، وتلاوة آيات القرآن وعبارات الاستغاثة والتذلل، ابتعدت بالخوف لرؤية الشيخ ذي العباءة الملونة، والذقن التي بلغت أسفل صدره، تصدر الحجرة المطلة — من نافذة حديدية — على ضريح سيدي كظمان، خالية من الأثاث تمامًا، عدا حصير ملون، فوقه شلثة يتربع عليها الرجل، وشلت خالية صنعت ما يشبه نصف الدائرة، يتوسَّطها حامل قرآن فتح المصحف داخل جانبيه، ودخان البخور المتصاعد يرسم أشكالاً تغلب عليها الرمادية في سقف الحجرة، وثمة عنكبوت استقر في نسيجه، في زاوية السقف.

تتناثر في أحاديث الشيخ كلمات استحضار الروح، ودم الهدهد، وجلد الغزال، والخفاش، والزعفران، والحبّة السوداء، والحرير الزفر، والفرشات الملونة الميتة. تكلمت أُمّي عن طيفٍ كأنه لأبي، يطوف حجرات البيت، لا يتلَفَّت، ولا يستوقفه ما تتجه إليه نظراته، يتنقل بين الحجرات، يخترق الأبواب والجدران، ينفذ من قطع الأثاث، لا يهمس بينه وبين نفسه، أو يعلو صوته بسؤالٍ، عيناه في اتساعهما، والحزن يقلص ملامحه. أصاحت السمع عند ترامي أذان العشاء من جامع البوصيري إلى كلمات تبينتها بتوالي الأسئلة.

سبققتني إلى البيت.

قالت: «غداً ... تصحبني لزيارة أبيك!»

لم أجد في ملامحها ما يشجعني على مجرد السؤال، أدركت أن القرار الذي اتخذته، لا سبيل إلى مراجعته.

عند الضحى، رافقتها إلى ميدان المنشية، ركبنا الترام حتى مقابر العمود، اتجهنا إلى شارع الرحمة بين الأحواش والشواهد الساكنة، دفعت أُمّي الباب الخشبي المفضي إلى المقبرة الغارقة في الظلمة والصمت، ونباح كلب يترامى من موضعٍ بعيدٍ. أصرّت أُمّي أن تنزل القبر بنفسها.

ساعدها التربي في نزول الدرجات الخمس إلى الفسقية في أسفل، رأيّتها — في الضوء الشاحب المتسلل من فوهة القبر — تميل على جسد أبي، تقرّب فمها من أذنه، وتهمس. مدّت أُمّي أصابعها فأغمضت العينين.

ساعد الرجل أُمّي في صعودها من داخل القبر، التقطت همسة الرجل وهو يقترب بفمه من أذنها: «هذا ما كنتِ تستطيعين فعله.» ما كادت تستقيم في وقفها داخل الحوش الساكن، حتى أسلمت وجهها إلى يديها المرتجفتين، وراحت في البكاء.

تعدد الوسائل إلى المبتغى

لما طالت وقفتي إلى جانب الحقائق، بدأت في تبديل موضعي، أسندت الحقيبة لصق الجدار، اطمأننت إلى موضع جلستي فوقها، ثم اتجهت — بنظرة محدقة — ناحية القطار القادم، أرقب القضبان الملتمة بألق الشمس، والسيمافورات، والتحويلات، والفلنكات الخشبية. على الرصيف المواجه، تناثر ركاب قليلون، وباعة حقائب وأجولة وقف وأسبته وصناديق وأكياس، النفق — أسفل القضبان — هجره الناس، وانتشرت فيه الأوساخ والظلمة، لم يعد موصلاً بين ضفتي الطريق، من خلف السور المقابل مآذن وأبراج وقباب وطوابق عليا.

من نزلوا يقصدون المدينة الصغيرة، آخر المحطات، لا محطات أخرى يتجه إليها القطار، تتلُفت نظراتهم في الاتجاهين، المحطة هي آخر ما ينتهي إليه القطار، يتوقف صوت أصكاك العربات، يصعد الركاب بتوقع العودة إلى محطة البداية، يعلو احتكاك القضبان في تحويل اتجاهها، يتبدل موضع القاطرة إلى الناحية المقابلة، ساعات، ثم تصدر صافرتها تأهباً للرحلة المعاكسة.

يعرف الناس اسم المحطة، وإن لم يعد مكتوباً على اللافتة، نزعت الأيدي من القوائم الخشبية، كانت ضمن محطات كثيرة، تأتي إليها القطارات، يسبقها التماع الأضواء الكاشفة على القضبان، اصطفاق مفاتيح التحويلات، نداء الموظف بموعد الرحلة التالية. غابت مواعيد القطارات، لم تعد تأتي في موعدٍ محددٍ، أو تواصل السير، أو تعود في موعد ينتظره الركاب.

أذكر حين كانت القطارات تنطلق إلى تفرعات في أراضٍ واسعة، مدن بعيدة، ينزل منها الركاب ويصعدون.

أعرف — دون أن أنظر إلى درجة العربية — نوعيات المسافرين التي تضمهم، وأشكال المقاعد، في ومضة خاطفة، ألمح الأزياء التي تميز الركاب بين عربية وأخرى، اختلاط البدل والجلابيب والفساتين والقفاطين والجبب والعباءات، وزحام الحقائق في الطريقة الواصلة بين عربتين.

تشغي المحطة عند وصول القطار بصخبٍ وزعيقٍ، تدبُّ الحركة، تختلط أحاديث الركاب والمودعين ونداءات الباعة وصافرة القطار وقرع الجرس إيذاناً ببدء الرحلة. يقف القطار دقيقتين أو ثلاثاً، ثم يبدأ في التحرك، ربما انطلق من دون أن يبطن، أو يتوقف، أمام المحطة، ينطلق كعاصفة، يخترق المدن الصغيرة والقرى والضواحي والأنفاق والزراعات والجبال والتلال والوديان والسهول والسهول والكباري والأنفاق والسيمافورات والمزلقانات وأعمدة التليفون والتلغراف والأشجار المتقاربة، وتتناثر البنايات في آخر الأفق. اعتدت الوقوف على المحطة، أنتظر قطاراً يبطن في سرعته، ثم يتوقف، أو يمر الوقت فلا يأتي.

تسبق الصفارة الطويلة قدوم القطار، يعلو ما يشبه الاحتكاك في السيمافور العالي، أعرف أن عامل المحطة يفسح للقطار القادم طريقه، يظل القطار على سرعته في اقترابه، واندفاعه بعيداً عن المحطة، القطارات تنطلق كهبة ريح، تصعب رؤية الركاب خلف النوافذ الزجاجية المغلقة، السرعة المذهلة التي ينطلق بها القطار، لا تتيح الرؤية الواضحة، أشبه بإدارة الشريط السينمائي بأضعاف سرعته، لا أكاد أحقق في مشهد استلفتني؛ حتى تكون العربات قد خلفت المحطة وراءها، أتابع آخر العربات في انطلاقها إلى محطات تالية، أرقب ابتعاد القطار، حتى يتحوّل إلى نقطة صغيرة قبل أن يغيب في انحناء نهاية الأفق.

لم أر المحطات التالية كلها، ولا وضعت لها صوراً أطمئن إليها، محطات القطار في أفلام السينما بناية خشبية، بابها يفضي إلى ما يشبه القاعة، يتدلّى مصباح بترولي من أحد عوارض السقف، في الجانب شبك التذاكر، وإلى يسار المدخل جرس يعلن موعد قيام القطار. رُويت حكايات كثيرة عن أيام اتصال المحطة بمحطات أخرى، قبلها وبعدها، ليست — كما تدل صورتها الحالية — بعيدة عن العمران، لكنها — إن استردت موضعها — في قلبه، من كانوا يترددون عليها ينزلون فيها، أو يواصلون الرحلة إلى مدن تالية، يعيدون ما كان إلى سيرته الأولى.

كانت قطارات البخار تسدل غلالة من السواد على البيت وما حوله، في انطلاقها عبر المحطة، تلاشت الغلالة السوداء بقدوم قطارات الديزل، لكن الضوضاء ظلّت على حالها في اندفاع القطارات.

توالت الأفعال التي جعلت إعادة المحطة إلى سابق عهدها متعذرة، القضبان علاها الصدا، بينها أعشاب وحشائش صفراء، تخللتها بقايا أشياء وأوساخ، نزعت القضبان لمسافة، بعيداً عن رصيف المحطة، رفعت التحويلة من مكانها، تساقطت أسلاك من أبراج الهواتف والبرق، تحطمت أكشاك الإشارات، مالت الأعمدة أو تهافت، ما يشبه المخزن المسقوف بكمرات الحديد والصاج، تلاصقت فيه عربات البضائع، وهياكل عربات الركاب. غاب ووقوف الناس يرقبون قدوم القطار، توقّفه قبل أن يمضي إلى المحطات التالية، أو انطلاقه دون توقف، الجدران يتساند عليها الصناديق الكرتونية والسلال والصرر والقفف والأقفاس.

لم تعد السوق في مكانها خلف السور، يترامى عبره نداءات الباعة وأصوات الزحام وروائح الخضر والفاكهة والبهائم والطير والسّمك، يسهل استدعاؤها إلى خاطر في أوقات الابتعاد عن المكان.

من بعد، يبدو كوبري المشاة خالياً، حتى الباعة الذين كانوا يستندون إلى أعمدته الحديدية، لم يعودوا في أماكنهم، تعرّى الكوبري من الإعلانات على لافتات القماش والورق. ما حدث لم يكن مفاجئاً.

نخر التسوّس سقف المحطة وعروقها الخشبية، تقوّست الأحجار، وتساقطت أجزاء منها، وتقرّش طلاء الحوائط، وتشقق، تساندت في جوانبها على أشجار مقطوعة، تغطّى السقف بالجريد وسعف النخيل، معظم النوافذ خالية من الزجاج، أو غُطيت بألواح الألبكاش والكرتون، علا التراب ما تبقى من الزجاج، وتساقط على الأرض، وحواف النوافذ، وقطع الأثاث، استقر — في الداخل — على الأرضية والأثاث المتهرئ القليل.

يقضي المفتش ذو الشعر المهوش، والبشرة القمحية، والكتفين المتهدلتين، نهاره ممدداً على بقايا الكنبه، داخل الحجرة الترابية، أو يستأذن من الفراش لمشوار، يغيب حتى ثاني يوم.

الكشك الخالي المجاور لباب الدخول، تحطّمت نوافذه الزجاجية الصغيرة، تلاشى ما كان يعرضه من صحفٍ وكتبٍ وسجائرٍ وحلوى، خلا من كل شيء، حتى أعمدة الإنارة — بامتداد الرصيف — تحطّم زجاجها، وانطفأت.

لا يذكر الناس أول من أبدى التملل، وأصرّ أن يلزم المحطة، لا يترك موضعه حتى يعود القطار من محطة البداية إلى المحطة التي كان ينتهي إليها.

زادت — بمرور الأوقات — أعداد الواقفين، تحوّلت — في مناسبة الاحتفال بمولد ولي في مدينة بعيدة — إلى حشود هائلة، علت الهتافات والنداءات والأعلام واللافتات، نزل

الكثيرون إلى القضبان، حول القطار وخلفه، كان ضغط الناس هزَّ القطار في موضعه، صاح السائق لتوقُّف المؤشر أمامه، بينما تحرك القطار إلى الأمام، تعالى الهتاف والتهليل، أُلقي الملح والزهور على الحشود التي غطت العربات.

واصل الناس دفعهم للقطار، لا يأبهون بتحذيرات السائق من أن المحطة هي آخر ما يبلغه القطار، صارت العربات جزءاً من حشود الناس، تلاصق الأجساد جعل لها مساراً على الأرض، تخترق الأرض بلا قضبان، تختلط الأصوات بصرير العجلات في تقدُّمها البطيء.

بدا ما حدث عصياً على التوقُّع، وعلى الفهم، كان القطار يستجيب لضغط التدافع، انزلق في الأرض الرملية، شقَّ له الناس — بتدافعهم — طريقاً، خلا الأفق من القضبان، أزيلت، أو تكوَّمت فوقها الأوساخ، تدافع الحشود شقَّ لها طريقاً، هي الطريق التي كان يقطعها القطار إلى المحطات التالية.

